المحاضرة الحادية عشرة

اللغة في الخطاب الثقافي

الدكتور رائد عكاشة
المعهد العالمي للفكر الإسلامي

الخميس 17 محرم 1435هـ- الموافق 21 تشرين الثاني 2013م

مقدمة

يشكل الخطاب في سياقه اللغوي، واللغة في سياقها الخطابي مفردتين مهمتين في الرؤية العربية المعاصرة، لا سيما بعد تنامي الحديث عن الهوية والانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية، في ظل الصراع الثقافي والحضاري مع الآخر؛ إذ غدت اللغة المكوّن الأساس للخطاب، فهي التي تُشكّل رؤيتنا للعالم. وما الخطاب إلا تولُّد لغوي أُنتج في سياق معين، وهو مبني على نص له مدلولاته.

ومثّل الصراع اللغوي مظهراً ملحوظاً، جعل الدول والمؤسسات والأفراد يستشعرون ضرورة التفاعل مع ما يحدث للغة من غزو وتهميش في المجالات الحيوية وحتى الترفيه. ولم تَعد مسؤولية حماية اللغة مقتصرة على الخاصة وخاصة الخاصة، ضمن أبوية واضحة في تشكيل المجتمع، ولم يعد المركز هو الأساس في صنع خميرة التغيير، بل قامت مؤسسات المجتمع المدني؛ الثقافية والفكرية والدينية والتربوية... بالقيام بما عجزت عنه المؤسسات الرسمية، ونشأ خطاب متجاوز، مُتَّسِم بالإدراك الواعي لمعطيات التطور التاريخي، وبالنظرة الموضوعية تجاه الذات، وبالاستثمار الحقيقي للطاقة النفسية والفكرية.

إن الخطاب مرتبط بعلاقات التواصل والتفاعل الخارجي مع الآخر، ومع الممارسات اليومية؛ إذ تكمن تواصليته في توصيل المعلومات والمعارف ونقل التجارب إلى المتلقي؛ وتتجلى تفاعليته في إقامة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، فهو ممارسة اجتماعية ثقافية، تتجاوز في كثير من الأحيان المقاصد اللغوية؛ المحكية والمكتوبة.

وبما أن الخطاب سياقٌ ونصٌ وممارسة، فستحاول الدراسة تلمُّس الخطاب الثقافي من خلال مظاهر الاستعمال اللغوي، والتحولات التي طرأت عليه في سياق

الخطاب الثقافي، مع الحرص على ملاحظة السياق الاجتماعي–النفسي–اللغوي في هذا الإطار؛ لأن اللغة –كما يراها علماء اللسانيات– ظاهرة اجتماعية، ونسق من العلاقات يسمح للأفراد بالاتصال فيما بينهم. وبناء عليه ستقوم الدراسة بالتطرق إلى السياقات الداخلية والخارجية لعلاقة اللغة بالخطاب الثقافي؛ أي بالانتقال من دراسة اللغة بوصفها موضوعاً إلى كونها ركيزة وأساساً لملاحظة مستوى الأداء اللغوي في السياق والخطاب الثقافي، على أساس أن السياق الاجتماعي والثقافي لا ينفصلان عن أي فعل لغوي، لا سيما أن النموذج الوظيفي للخطاب الثقافي متكئ على تتبع السياقات المعرفية والثقافية والاجتماعية التي أثّرت على تغيير النسق اللغوي؛ إذ لا تتحدد وظيفة الخطاب التواصلية إلا باستحضار السياق والمتلقي؛ أي باستحضار المؤثرات الاجتماعية والثقافية... .

وستحاول الدراسة ملاحظة التراتبية اللغوية في الخطاب الثقافي، ومدى حضور اللغة الفصحى خاصة في هذا الخطاب، بوصف هذا الحضور تعالُقاً مع هوية الأمة، وغيابه يُعدُّ خيانة ثقافية. ومن المفيد أن تستند الدراسة إلى بعض الخطابات الثقافية الموجودة في الأردن، وتلمّس اللغة من خلال تأسيساتها النظرية وتجلياتها العملية.

أوّلاً: تحرير المصطلحات والمفاهيم

تميل بعض الدراسات العلمية إلى تأطير المفاهيم والمصطلحات التي تستخدمها؛ درءاً لسوء فهم قد ينجم عن عدم فهم مراد الباحث، نتيجة لتباين الفهم تجاه المفاهيم والمصطلحات المستخدمة، مما يؤدي إلى غياب اللغة المشتركة في التواصل مع الفكرة. لا سيما أن المفاهيم قد ترتبط بالمعاني والمشاعر الموجودة في

أذهان الناس،[١] مما يجعلها مرنة مرونة متّسعة، تفرض على مستخدمها تقييدها. لذلك نلمح أحياناً تركيزاً من الباحثين على تضمين دراساتهم مبحثاً يتناول المصطلحات والمفاهيم الإجرائية للدراسة.

وتتنوع المفاهيم بتنوّع الحقول المعرفية التي تتضمنها، ويفرض الحقل المعرفي اتساعاً أو تحديداً للمفهوم؛ فثمة مفاهيم ينبغي أن تكون محددة، لا سيما تلك المتعلقة بالعقيدة مثل مفاهيم الإيمان والشّرك والكفر...، وثمة مفاهيم تتسع اتساعاً كبيراً، وتتطور بشكل ملحوظ، مثل المفاهيم المتصلة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية؛ إذ نجد لهذه المفاهيم دلالات معجمية وسياقية كثيرة. ونلمح لها كذلك معاني أساسية يشترك فيها المتحاورون، وأخرى إضافية تختلف باختلاف المناخ الثقافي الذي تتشكل فيه.

وترى الدراسة بأن ثمة مفاهيم أساسية ينبغي التطرق إليها بشكل إجمالي؛ إذ ليس من هدف الدراسة البحث في كينونة هذه المفاهيم وتاريخ فكرتها، بل بموقعها المعياري والوصفي والذهني؛ أي بما يتشكل في ذهن باحث الدراسة، محاولاً الاقتصار على تلمّس المفاهيم في إطار التفكير العربي. وقد حصرت الدراسة المفاهيم المؤطرة لها في أربعة مفاهيم أساسية هي: الخطاب، والثقافة، والخطاب الثقافي، واللغة.

١. الخطاب:

---

١. لقد أدرك علماؤنا الأقدمون خطورة الانفصام بين اللفظ والعقل والواقع، فهذا أبو حامد الغزالي يقول:" إن للأشياء وجوداً في الأعيان ووجوداً في الأذهان ووجوداً في اللسان، أما الوجود في الأعيان فهو الوجود الأصلي الحقيقي، والوجود في الأذهان هو الوجود العلمي الصوري، والوجود في اللسان هو الوجود اللفظي الدليلي. فإن السماء مثلاً لها وجود في عينها وفي نفسها، ثم لها وجود في أذهاننا ونفوسنا؛ لأن صورة السماء حاضرة في أبصارنا ثم في خيالنا... أما الوجود في اللسان فهو اللفظ المركب من أصوات... فالقول دليل على ما في الذهن، وما في الذهن صورة لما في الوجود من مطابقة له. ولو لم يكن وجود في الأعيان لم ينطبع صورة في الأذهان، ولو لم ينطبع صورة في الأذهان لم يشعر بها إنسان، ولو لم يشعر الإنسان لم يعبّر عنها اللسان. وإذن فاللفظ والعلم والمعلوم ثلاثة أمور متباينة لكنها متطابقة متوازية." انظر:

- الغزالي، أبو حامد. المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القاهرة: مكتبة الجندي، 1968م، ص10.

يُعد مفهوم الخطاب من أكثر المفاهيم المتّسعة؛ إذ تعددت التعريفات المتعلقة به[١]، نظراً لتنوّع المشارب الفكرية واللغوية والفلسفية والاجتماعية التي تطرقت إليه في سياقه الغربي خاصة[٢]. وفي سياق التفكير العربي، ولا سيما اللغوي منه، نجد تعريفات كثيرة؛ فمن المفكرين والنقاد اللغويين من انطلق انطلاقاً بنيوياً؛ إذ رأى الخطاب جملة واحدة تجمع بين أعضائه علاقات إحالية، وتتسم هذه الجملة بالاكتفاء الذاتي؛ إذ لا تحتاج إلى العوامل الخارجية. وهي بذلك بنية مغلقة [٣] تُدرس في ذاتها ولذاتها. [٤] وغياب المرجعية يجعل الخطاب متميزاً لا يطابق الواقع، ولا يهتم بتسجيل الأحداث، بل يهدف إلى خلق عالم لغوي خاص [٥]. ومن النقاد من يرى بأن الخطاب يمثّل رمزاً مشتركاً بين المُرسِل والمتلقي، مما ينبئ عن علم

---

١. لعل الناظر في سيرورة مفهوم الخطاب في التفكير الغربي، يلمح التطورات التي حدثت على تعريف الخطاب، تبعاً للمؤثرات التي عملت على صوغه؛ إذ نجد تصوّراً لمفهوم الخطاب منطلقاً من التواصلية اللغوية المباشرة، ومنتهياً بالتأويلية والممارسة وما وراء اللفظ أو اللغة. فالخطاب عند الغربيين "كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوباً أو ملفوظاً، غير أن الاستعمال تجاوز ذلك إلى مفهوم أكثر تحديداً، يتصل بما لاحظه الفيلسوف هـ ب غرايس عام 1975م من أن للكلام دلالات غير ملفوظة، يدركها المتحدث والسامع دون علامة معلنة أو واضحة... وقد اتجه البحث فيما يعرف بتحليل الخطاب إلى استنباط القواعد التي تحكم مثل هذه الاستدلالات أو التوقعات الدلالية." انظر:

-الرويلي، ميجان، والبازعي، سعد. **دليل الناقد الأدبي** ، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000م، ص89.

٢. يرى بعض الباحثين أن ثمة تجاوزاً لمفهوم الخطاب لدوره اللساني إلى آفاق أخرى وعلوم متباينة. ولاحظوا أن هناك اضطراباً في فهم مفهوم الخطاب، وأن ثمة خلطاً والتباساً بين مفهومي الخطاب والنص داخل الثقافة الغربية قبل انتقالهما إلى الثقافة العربية عن طريق الترجمة. وإن كان يغلب في التقليد الأوروبي استخدام النص، وفي التقليد الأنجلو أمريكي استخدام الخطاب. انظر:

– العبد، محمد. **النص والخطاب والاتصال**، القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط 1، 2005م، ص7.

٣. يرى رولان بارت أن الخطاب يمتلك وحداته وقواعده ونحوه. انظر:

– بارت، رولان. **التحليل البنيوي للسرد**، ترجمة: حسن بحراوي وبشير القمري وعبد الحميد مقلد، المغرب: منشورات اتحاد كتاب المغرب، 1999م، ص9.

٤ المسدي، عبد السلام. **الأسلوب والأسلوبية**، تونس: الدار العربية للكتاب، 1977م، ص116.

٥. السد، نور الدين. **الأسلوبية وتحليل الخطاب**، الجزائر: دار هومة، 1997م، ج2،ص68.

كلٍّ من المُرسل والمتلقي بالأنماط اللغوية المستخدمة، لتحقيق الهدف التواصلي [١].ولعل هدف التواصلية من الأهداف المتعينة التي أرادها العرب من تعريفهم للخطاب، أكان هذا التواصل منطوقاً [٢]،أم مكتوباً [٣].وثمة من يرى في الخطاب التواصلية والتفاعلية والاتساق والانسجام والتطور والتحوّل، تبعاً لكل قارئ [٤]. وبما أن الخطاب متواصل مع القارئ، لتَضَمُّنِه خصائص نفسية واجتماعية وثقافية، فإن هذا يجعله يقول ما فيه، فلا داعي للإقبال عليه بأفكار مسبقة[٥]. لذلك فالخطاب خلق لُغة من لُغة.

وثمة من ينظر إلى الخطاب بوصفه من المصطلحات المعقدة التي ينفتح فيها التأويل [٦]على جملة من المفاهيم، ومجموعة من المقاصد. وما اللغوية إلى واحدة منها، وربما تكون أكثرها تجلياً [٧].لذلك يرى بعض النقاد أن الخطاب ليس وعياً يتخذ من اللغة مظهره الخارجي، وليس لساناً وذاتاً تتكلمه، وإنما هو ممارسة، لها أشكالها الخاصة من الانتظام [٨].وهناك من يجد الخطاب صيغة نختارها لتوصيل أفكارنا إلى الآخرين، وصيغة نتلقى بها أفكارهم، سواء أكان ذلك عبر

---

١. يُنسب هذا الرأي إلى سعد مصلوح. انظره في:
- السد. **الأسلوبية وتحليل الخطاب**، مرجع سابق، ج2، ص74.

٢. ومثاله ما ورد في لسان العرب: مادة خطب.

٣. ومثاله ما ورد في المعجم الوسيط: مادة خطب.

٤. مفتاح، محمد. **تحليل الخطاب الشعري**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1995، ص120.

٥. يُنسب هذا الرأي إلى منذر عياشي. انظره في:
- السد. **الأسلوبية وتحليل الخطاب**، مرجع سابق، ج2، ص13.

٦. لعل فهم ما وراء اللغة يذكرنا بما قاله الباجي عندما عرّف الخطاب؛ إذ قال: "ما فُهم من قصد المتكلم ما لم يوضع له لفظ" انظر:
- الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف. **المنهاج في ترتيب الحجاج**، تحقيق: عبد المجيد تركي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط3، 2001، ص12

٧. لعل أبرز من يمثل هذا النمط في التفكير، الذي يتجاوز الحدود اللغوية، فوكو ومَنْ تبعه من المفكرين والنقاد الذين تحدثوا عن مفهوم الخطاب والسلطة.

٨. بنعبد العالي، عبد السلام. **بين بين**، الدار البيضاء: دار توبقال، ط1، 1996، ص78.

الكلام أم الإشارة أم الإبداع الفني[١].وثمة من يجد الخطاب لغةً بوصفها حواراً بين الكاتب والقارئ، أو بين أفكار الكاتب وأفكار القارئ، أو بين ما يمثله الكاتب: اجتماعياً أوسياسياً أو ثقافياً...، وما يمثله القارئ[٢].

أما مفهوم الخطاب في سياق الدراسة فيعني: ذلك الفعل التواصلي [٣] القصدي، الذي يرمي من خلاله المنشئ إلى التأثير في المتلقي؛ لإيصال رسالة ما.

٢. الثقافة:

لعل مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم التي أخذت نصيباً وافراً من التعريف والتحليل والتقعيد والتصنيف، لما لها من ارتباط بالمعارف والعلوم كلها دون استثناء، وبما يتصل بمناشط الإنسان الفكرية والعملية، وبما لها من اتصال مع الملموس والمجرد. ففي نهاية الخمسينات استطاع المؤلفون أن يجمعوا أكثر من مئة وخمسين تعريفاً مختلفاً للثقافة قيد الاستعمال في الكتب الأكاديمية[٤].

ثمة تعريفات متعددة للثقافة تتمحور حول ماهية الثقافة بوصفها طريقة حياة كُلِّية[٥]،أو طريقة العيش والتفكير ، أو بوصفها معارف عامة، أو بوصفها نشاطاً علمياً وإبداعياً ملتزماً، أو مجموعة من المعتقدات أو القيم التي تعطي معنى لطرق الحياة، وتُنتج ويُعاد إنتاجها من خلال أشكال مادية ورمزية، أو مجمل السلوك

---

١. استيتية، سمير. **اللغة وسيكولوجية الخطاب**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 2002م، ص15.

٢. عناني، محمد. **من قضايا الأدب الحديث**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م، 36.

٣. التواصل بأي شكل من أشكال إخراج المعاني التي تحدث عنها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، المتمثلة في: اللفظ والإشارة والكتابة والعقد والنصبة.

٤. كرانغ، مايك. **الجغرافيا الثقافية** ، ترجمة: سعيد منتاق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 317، 2005، ص14.

٥. للاستزادة حول مفهوم الثقافة والحضارة في السياق الذي يتحدد به في الدّراسات (الأنثربوبوجية والسوسيولوجية) والفلسفة، انظر: – السعيد، فؤاد، وخليل، فوزي. **الثقافة والحضارة : مقارنة بين الفكرين الغربي والإسلامي**، سوريا: دار الفكر، 2008

الإنساني الذي تتشارك فيه مجموعة ما، أو أسلوب الحياة بين أعضاء مجتمع معين، أو مجمل الكسب الإنساني في تفاعله مع بيئته ومجتمعه ومصادر معرفته وأدواتها. وتشمل الثقافة بذلك: العادات والتقاليد والأفكار والعقائد والفنون واللغة والرموز ومناشط الإنسان وأساليب حياته. وثمة من يرى أن الثقافة مجموعة من الصّفات الخُلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثّر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة، في الوسط الذي ولد فيه [1].ويمكن فهم دلالات الثقافة في الأصل العربي المعتمد على المرجعية المعجمية بشكل خاص، فيما يأتي[2]:

– إن مضمون مفهوم الثقافة في اللغة العربية ينبع من الذات الإنسانية ولا يُغرس فيها من الخارج، فالكلمة تعني تنقية الفطرة البشرية وتشذيبها وتقويم اعوجاجها، ثم دفعها لتوليد المعاني الجوانية الكامنة فيها، وإطلاق طلقاتها لتنشئ المعارف التي يحتاج إليها الإنسان.

– إن مفهوم الثقافة في اللغة العربية يعني البحث والتنقيب والظفر بمعاني الحق والخير والعدل، وكل القيم التي تُصلح الوجودَ الإنساني وتهذّبه وتقوِّم اعوجاجه. فهو مفهوم يفتح أمام العقل البشري المعارف والعلوم النافعة الصالحة، ولا يُدخل فيه تلك المعارف أو العلوم أو القيم التي تُفسد وجود الإنسان، ولا تتسق مع مقتضيات التهذيب والتسوية وتقويم الاعوجاج.

– يركز مفهوم الثقافة في المعرفة على ما يحتاج الإنسان إليه طبقاً لظروف بيئته ومجتمعه، وليس على مطلق أنواع المعراف والعلوم. وهذا يربط مفهوم الثقافة بالنمط المجتمعي الذي يعيش الإنسان في ظله، وليس بأي مقياس آخر، يقسم

---

١. ابن نبي، مالك. **مشكلة الثقافة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، سوريا: دار الفكر، ص 74.

٢. يمكن تتبع نشأة مفهوم الثقافة وتطوره في الفكرين الغربي والعربي في:

– عارف، نصر. **الحضارة–الثقافة–المدنية**، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1994م.

الثقافات قياساً على ثقافة معينة. فاللفظ العربي يعدّ الإنسان مثقفاً طالما هو ثابتُ المعرفة بما يحتاج إليه في زمانه وعصره ومجتمعه وبيئته. ولذلك يكون المثقف مرتبطاً بمجتمعه وقضاياه بغض النظر عن كم المعارف والمعلومات المكدّسة في ذهنه؛ أي حجم المعارف التي يمتلكها، والتي ربما تكون أفكاراً ميتة أو مميتة.

- إن مفهوم الثقافة غير مقيّد أو مخصص، فهو عام للإنسان والجماعة والمجتمع، ويشتمل على جميع أنواع الممارسات الإنسانية، ومختلف درجاتها، ويعطي دلالاته على أي مستوى تحليلي يستخدم فيه، طالما تحقق مطلق التهذيب والتقويم.

وتقصد الدراسة بالثقافة في هذا المقام: ما يمارسه الفرد والمجتمع من طرائق في التفكير والسلوك في مناشط حياته كلها، بما يهدف إلى تقويم سلوك المجتمع وتهذيبه، ضمن مرجعية واضحة متسقة مع تاريخ المجتمع وقيمه وعقيدته وتراثه ولغته.

٣. الخطاب الثقافي:

بناء على ما سبق من تعريفنا للخطاب وللثقافة، فإننا نعني بالخطاب الثقافي هو تلك التنظيرات والممارسات التي تُعنى بالشأن الثقافي، والمتصلة اتصالاً مباشراً بشرائح متعددة ومتنوعة في المجتمع، وتهدف إلى محاولة تشكيل الأفراد والمجتمع، بما ينسجم مع مرجعية المجتمع الفكرية والثقافية والعقدية واللغوية، سواء أكان ذلك على الصعيد المادي أم المعنوي أم المنهجي أم القيمي... [١].

٤. اللغة:

قد يغدو الحديث عن التأطير النظري للغة أصعب بكثير من الممارسة العملية لها؛ إذ ليس الإنسان بحاجة إلى أن يرسم معالم النظرية وهو يمارس اللغة

---

١ ثمة اختزال لمفهوم الثقافة، ليركز على الفنون الأدبية لا سيما الشعر؛ إذ لوحظ بأن معظم النشاطات الثقافية لوزارة الثقافة ورابطة الكتاب تركز على النشاط الأدبي، لا سيما في بعده الشعري والنقدي. بينما توسّع مفهوم الثقافة عند مؤسسة عبد الحميد شومان؛ إذ شمل معظم مناشط الحياة. وهذا يتسق مع المفهوم الحقيقي للثقافة.

دون عائق. وتأتي الصعوبة من أننا ننتقل في الحديث عن اللغة من التوصيف العملي المسموع والمقروء والمتحدث والمكتوب، إلى الحديث عن الفلسفة التي صاغت اللغة، والمنطلقات النظرية التي كوّنتها.

إن التفحّص الدقيق لبعض النصوص القديمة يعطينا تصوراً حول مفهوم اللغة عند بعض الذين عنوا باللغة، من حيث فلسفتها وطبيعتها وتكويناتها وهدفها. فذا ابن جني يرى أن اللغة "أصوات يُعبّر بها كل قوم عن أغراضهم." [١]ويعرفها ابن خلدون بقوله: "عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام." [٢]

ومما يلاحظ على النصين السابقين بأن إحداث فعل التواصل هو الأساس الوظيفي للغة، وأن الطابع اللساني الصوتي هو المكوّن الأساس للغة. إن التركيز على البُعد التواصلي للغة، ودراسة اللغة ضمن مستوياتها المعروفة: الصوتي، والتركيبي، والصرفي، والدلالي، والمعجمي، والبلاغي يجعل اللغة مقصودة لذاتها، وبنية مغلقة مكتفية بذاتها. صحيح أن وظيفة التواصل من أهم وظائف اللغة نظراً لكونها تحقيقاً صوتياً لميل الإنسان إلى رؤية الواقع بطريقة رمزية، وبفضلها تكوّنت الجماعات الإنسانية، فتاريخ البشرية منذ بدايته يفترض وجود اللغة. إلا أن ثمة فارقاً بين اللغة والتواصل، فعلى الرغم من أهمية وظيفة التواصل وحيويتها وضرورتها، إلا أنها لا تمنح اللغة خصوصية؛ إذ إنها متحققة بين الكائنات الأخرى بالقدر الذي تحتاجه، وبهذا فالتواصل لا يأخذ دوره الفعلي والجوهري، إلا إذا تعالق مع الفكر، ليشكلا هوية واضحة قادرة على تحقيق الانسجام بين الماضي والحاضر والمستقبل. ولعل الاقتصار على دور اللغة في التوصيل –بمعناه البسيط– أدّى إلى خلل واضح في فهم مقصدية اللغة، وعدّها أداة لتوصيل المعنى

---

١. ابن جني، أبو الفتح. **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت: عالم الكتب، ج1، ص33.

٢. ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2004، ص621.

فحسب، غاضين الطرف عن الأخطاء والركاكة؛ إذ لا يؤثر هذا في وصول المعنى واستيعابه.

ومن هنا جاءت القراءة المعرفية لتركز على البُعد التمثّلي للغة، الذي يمنح اللغة إطارين مهمين: الإطار الداخلي الذي يعطينا تصوّراً واضحاً حول مكنونات اللغة، وطاقتها التفجيرية في التعبير عن الأفكار، من خلال تحليل مستويات اللغة آنفة الذكر، والإطار الخارجي الذي يبرز لنا قدرة اللغة على التعالق مع العالم الخارجي: نفسياً واجتماعياً واقتصادياً...، واستيعابه تبادلياً، من خلال إنتاج الألفاظ والمفاهيم والمصطلحات القادرة على تمثّله.

تتحدد اللغة في هذه الدراسة ضمن رؤية معرفية لسانية ترى أن المقصود باللغة: ذلك القالب اللفظي والشكّلي المتكئ على القواعد والمعايير التي وضعها العرب، ويتم من خلاله تفحّص مناشط الحياة والوجود وتمثّلها؛ لإقامة التفاعل مع الذات والوجود. وذلك القالب هو اللغة الأم؛ أي تلكم اللغة التي اتخذتها الأمة ميداناً منسجماً للتعبير عن هويتها، وغدت الشكل المتجلي للتواصل بين أفرادها، واتخذتها كذلك الدولة لغة تواصل في إدارتها ومؤسساتها ومراسمها، وهي التي نص عليها الدستور. لذلك نجد الفن التشكيلي على سبيل المثال لا الحصر، الذي يستخدم الحروف العربية في لوحاته، تمثّلاً من تمثّلات اللغة، وشكلاً من أشكال التواصل اللغوي[١].

ثانياً: دور اللغة في بناء الشخصية العربية الإسلامية

١. انظر انتشار الحرف العربي في اللوحات التشكيلية ضمن ما يُسمى بحركة الحروفية، التي تعتمد على تنويعات الحرف العربي في إبراز المظهر الجمالي للوحة الفنية.

أدرك سلف هذه الأمة دلالة ارتباط العربية بالإسلام؛ فالعربية عندهم كادت تكون مرادفةً للإسلام، وهما معاً يشكّلان خاصية المسلم وهويته، فحين سأل أبو جعفر المنصور مولى لهشام ابن عبد الملك عن هويته قال المولى:"إن كانت العربية لساناً فقد نطقنا به، وإن كانت ديناً فقد دخلنا فيه"[١].

يُعدّ إتقان قواعد اللغة وفروعها وتطبيقاتها من أهم الشروط اللازمة لفهم الدين، الذي يُعدّ مكوناً أساسياً من مكونات الشخصية العربية الإسلامية، فإتقان اللغة مهم للمفسّر والمحدّث والأصولي والفقيه المجتهد للفهم الصحيح للإسلام، ولحسن فهم مقاصده، ولضمان سهولة التخاطب والتفاهم بين أفراد الأمة الإسلامية. ومن أراد فهم مقاصد الشارع، أو استنباط أحكامه، أو تفسير آية أو حديث ولم يكن عالماً بالعربية؛ فإنه قد يضل الطريق في فهمه للمقاصد وحكمه وتفسيره. كتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري:" أما بعدُ فتفقهوا في السُنة، وتفقهوا في العربية وأعربوا القرآن فإنه عربي، وتعلموا العربية فإنها من الدين." [٢]ويقول ابن تيمية:" واعلم أن اعتيادَ اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًا بيّناً، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين. ومشابهتهم يزيد من العقل والدين والخلق وأيضاً فإن نَفَسَ اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب." [٣]ويقول

---

١. انظر النص في :

- الدوري، عبد العزيز. **التكوين التاريخي للأمة الإسلامية: دراسة في الهوية والوعي** ، بيروت، 1984، ص19.

٢. ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد. **المصنف**، بيروت: دار الفكر، 1994م، أحايث الأحكام، ص130.

٣. ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم. **اقتضاء الصراط المستقيم**، تحقيق: عصام فارس الحرستاني ومحمد إبراهيم الزغلي، بيروت: دار الجيل، 1993م، ص 207.

أيضًا:"اللسان العربي شعارُ الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي يتميزون بها." (١)

وثمة أقوال كثيرة تكشف عن أهمية إتقان اللغة، والتعرف على أسرارها، لما يتيحه من تنظيم للفكر، وتاثير في المتلقي(٢).

ويفهم من كلام السلف والخلف أنه ليس المقصود من تعلم اللغة العربية الاقتصار فقط على القواعد الأساسية، التي تتوقف وظيفتها على معرفة ضوابط الصحة والخطأ في كلام العرب، وإنما المقصود من تعلم اللغة العربية لدارس الكتاب والسنة والمتأمل فيهما، هو فهم أسرارها وإدراك مقاصدها، والبحث عن كل

---

١. المرجع السابق، ص203.

٢. انظر:

- الزجاجي، أبو القاسم. **الإيضاح** في **علل النحو**، تحقيق:: مازن المبارك، ط6، 1996، ص96.
- القرطبي، أبو عبد الله. **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، ط 1، مؤسسة الرسالة، باب ما جاء في إعراب القرآن.
- الحموي، ياقوت. **معجم الأدباء**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الفكر، 1980، ج1، باب فضل الأدب وأهله.
- الشافعي، محمد بن إدريس. **الرسالة**، تحقيق: أحمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية، ج1،ص42.
- الغزالي، أبو حامد. **المنخول من تعليقات الأصول**، تحقيق: محمد حسن هيتو، ط 1، دمشق: دار الفكر 1980م، ص463، والمزهر، ج1، ص5.
- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى . **الموافقات في أصول الشريعة** ، تحقيق: محمد عبد الله دراز، ط1، مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ج4، ص324.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. **الخصائص**، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1347هـ، ج1، ص11.
- الزمخشري، أبو القاسم. **المفصل في صناعة الإعراب** ، تحقيق: علي بو ملحم، بيروت: مكتبة الهلال، ط1، 1993، مقدمة المؤلف، ص2.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله. **تأويل مشكل القرآن**، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة: دار التراث، ط2، 1973، ص12.
- ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص545.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري، **فقه اللغة وأسرار العربية** ، شرح: ديزيرة شقال، بيروت: دار الفكر، 1999م، ص10.

ما يفيد في استنطاق النص، ومعرفة ما يؤديه التركيب القرآني على وجه الخصوص، بوصفه أعلى ما في العربية من بيان. وقد نبّه على هذه الخاصية الزجاجي في كتابه الإيضاح في علل النحو؛ إذ يقول: "فإن قال قائل: فما الفائدة في تعلم النحو، وأكثر الناس يتكلمون على سجيتهم بغير إعراب، ولا معرفة منهم به، و يُفهمون غيرهم مثل ذلك؟ فالجواب في ذلك أن يقال له: الفائدة فيه الوصولُ إلى التكلم بكلام العرب على الحقيقة صوابًا غير مبدَّل ولا مغيَّر، وتقويمُ كتاب الله عز وجل، الذي هو أصل الدين والدنيا والمعتمد، ومعرفة أخبار النبي صلّى الله تعالى عليه وسلم، وإقامة معانيها على الحقيقة؛ لأنه لا تفهم معانيها على صحة إلا بتوفيتها حقوقها من الإعراب" [١].

لقد كثر الحديث منذ منتصف القرن الماضي عن اللغة وأهميتها في صنع الهوية، ودورها في بناء الشخصية العربية خاصة [٢]. ولعل الحديث يتنامى كلما كان هناك شعور بالتحدي الذي تواجهه اللغة العربية، ومردّ هذا التحدي "الشعور المبالغ فيه بأهمية اللغة الأجنبية الناتج غالباً عن الانبهار بكل ما هو أجنبي، والظن الزائف بأن التقدم لا يأتي إلا عن طريق إتقان اللغة الأجنبية للجميع، بل والتحد ث بها بين العرب أنفسهم. وغني عن الذكر أن هذا الشعور يأتي من الإحساس بالهزيمة النفسية التي يعاني منها الإنسان العربي في هذا العصر، والإعجاب المتنامي بصانع الحضارة المعاصرة الذي يمثل المنتصر الغالب." [٣]

---

١. الزجاجي، أبو القاسم، **الإيضاح في علل النحو**، مرجع سابق، ص95.

٢. لعل المطّلع على طبيعة المؤتمرات التي نظمتها أقسام اللغة العربية في الجامعات العربية، يجد أغلبها تناقش موضوع مكانة اللغة العربية في ظل التغيرات المعاصرة ، مما يدل على ملمحيْ الخوف على اللغة من الضمور والهيمنة، وعلى الحاجة الماسة إلى تطوير طرائق إدماج اللغة في العصر.

٣. الضبيب، أحمد. **اللغة العربية في عصر العولمة**، الرياض: مكتبة العبيكان، ط1، 2001م، ص16.

واللغة أيقونة مهمة في تحديد الرؤية؛ إذ إن "اللغة التي تنتمي إلى مجتمع بشري معين، والتي يتكلمها أبناؤها، ويفكرون بواسطتها، هي التي تنظم تجربة هذا المجتمع، وهي التي تصوغ بالتالي عالمه وواقعه الحقيقي، فكل لغة تنطوي على رؤية خاصة للعالم؛" [١] لأنها بمثابة شبكة تواصل وقنوات نقل للتراث والمعرفة الوافدة إلى الذات، والناقلة من الذات إلى الآخر، فلا جرم أن يعتصم كل مجتمع بهويته الثقافية من خلال تنشئته بلغته.

وقد يحدث انسجام بين اللغة والهوية، فتغدو لغة الهوية مُشبَعة بهوية اللغة، وتصبح هوية اللغة علامة بارزة لهذه اللغة، وكلتاهما سيدتان ومسودتان، فصحيح أن الإنسان هو الذي يصنع اللغة، إلا أنه أسير لها ولا يخرج عن قوانينها، واللغة "سبيل المرء إلى معرفته لذاته ومحيطه، وهي في الوقت نفسه تفرض على المرء قيوداً تمنعه من تخطيها، فإذا أراد شخص أن يعبّر عن مكنوناته، أو أن يتواصل مع إخوانه، أو أن يعي ما يجيش في نفسه، فإنه يستعمل في ذلك ما تُقدّم اللغةُ إليه من مفردات وتراكيب، وهو يبقى في ذلك أسير هذه المفردات والتراكيب"[٢].

تعاني الذات –أحياناً– من شعور بالتفسخ ما بين الماضي والحاضر. وقد يدفع هذا الشعور تلك الذات إلى محاولة إعادة تشكيل الهوية التي تمنحها صفة الانسجام، مما يدفع الذات إلى الاحتماء باللغة الأمّ شكلاً من أشكال الهوية؛ إذ يُعدّ هذا الأمر غريزة يشعر بها المرء بالاطمئنان، ويستطيع من خلالها أن يبثّ همومه، وينقل أفكاره وعاداته وتقاليده. وفي ذلك يقول ساطع الحصري: "إن اللغة سواء قلنا إنها خلقت دفعة واحدة من قبل الله، أم ذهبنا إلى أنها تكونت تدريجياً بعمل العقل، فلا يمكن أن نشك في أنها –في الحالة الراهنة– هي التي تخلق

---

١. تنسب المقولة إلى إدورد سابير، انظرها في:

– بركة، بسام . اللغة العربية: القيمة والهوية، **مجلة العربي**، العدد 528 تشرين الثاني،2002م، ص 84

٢. كرمة، الشريف. اللغة العربية وعلاقتها بالهوية، **مجلة حوليات التراث**، مستغانم، الجزائر، العدد 6 2006م، ص41

العقل، أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيراً عميقاً، وتسدده وتوجّهه توجيهاً خاصاً، فاللغة القومية تعتبر بمثابة الوعاء الذي تتشكل به، وتحفظ فيه، وتنتقل بواسطته أفكار الشعب. إن لغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، فقلب الشعب ينبض في لغته وروحه، وتكمن في بقاء هذه اللغة." [١]

وقد يحدث شرخ وحالة فصام نكد بين اللغة والهوية، وهو ما يمثل فسخ الهوية؛ أي حدوث قطيعة مع اللغة في سياقات تقطع الذات عن اللسان، ومن ثم هي حالة تحاول تغريب اللسان بالمعنى الواسع. وفسخ الهوية يؤدي إلى قطيعة مع الأصل وإلى قطع الذات عن العلاقات الفطرية ومجالاتها الحيوية [٢].وما من شك في أن حالة الفصام تؤدي إلى انسلاخ الإنسان عن ذاته وذاكرته، ضمن محور يحاول محو الذاكرة الحضارية، وقطع النفس عن ذاكرتها التراثية، لتتشكل في وعي ولا وعي أبناء اللغة أن لغتهم سبب رئيس في تخلفهم وفقدانهم فاعليتهم الحضارية. فينشأ جيل لا يستطيع صوغ ذاته وشخصيته، ولا يقدر على رسم حدود الانتماء، فهو ابن الهوية والحضارة والجغرافيا والزمان، ولكنه يستعير لساناً آخر غير قادر على إعادة تشكيله؛ إذ إن اللسان في منزلة (تفوق) منزلة الهوية، والذات ترغب هذا اللسان، واللسان يأبى ذلك، فتحدث عندئذ حالة المسخ التي تمثل صيغة موحشة للذات، التي تشعر بالاغتراب، فلا هي ابنة اللسان، ولا هي ابنة الهوية.

تُعد اللغة في المفهوم الإناسي (الأنثربولوجي) أساس النشاط الثقافي، وهي أساس أيضاً في التصنيفات الإثنية؛ إذ تغدو تعبيراً عن الوجود. وما الصراعات

---

١. الحصري، ساطع. **ما هي القومية**، بيروت: دار العلم للملايين، ص56

٢. وهذا ما يمثله الخطاب الثقافي عند بعض الحداثيين، الذين يرون ما في التراث بكل تجلياته عبئاً على إبداعهم، لذا لا بدّ من نبذه.

الإثنية داخل بعض البلدان الغربية مثل بلجيكا وهولندا وإسبانيا وكندا إلا تمثيل واضح على أهمية اللغة في التعبير عن الذات، وعن دور اللغة في بناء شخصية الفرد؛ إذ لم تعد أساساً للتواصل بين الأفراد، بل غدت إطاراً وجودياً للفرد، وسياجاً مجتمعياً لبناء الذات وحمايتها. وما قانون (توبون) الفرنسي، الذي نشأ إثر الحرب الديبلوماسية التي حدثت بين فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية 1994 تحت عنوان الاستثناء الثقافي، إلا مثال صارخ على التمسك باللغة؛ لأنها عنوان هوية المجتمع الفرنسي؛ إذ قام هذا القانون على ثلاث دعامات رئيسة هي: إغناء اللغة الفرنسية، وإجبارية استعمالها، والدفاع عنها بوصفها لغة الجمهورية.

يرى بعض المفكرين أن اللغة تعمل على توجيه الإنسان ليندمج في التراتبية الاجتماعية؛ إذ تفرض عليه الاستعمال الصحيح للكلمات داخل النظام الذي ينتمي إليه. وهي تتحكم به في اختيار المقال المناسب للمقام المناسب، فهي بذلك سلطة تهذيبية إلزامية؛ إذ تحدد نطقنا وألفاظنا وتركيبنا اللغوي، ومن هنا لا تظهر قدرة الفرد الإبداعية إلا من خلال قدرته على الالتزام بقوانين النسق اللغوي[١].

ويُعد مفهوم "التراتبية اللغوية" من المفاهيم المعرفية ذات التجذر الأيديولوجي الاجتماعي النفسي، وهو مرتبط بشكل كبير بالبناء النفسي للفرد والمجتمع. ولعلنا عندما ننظر في التنظيرات والممارسات التي قام بها "الاستعمار" في بعض البلدان من تغيير في الهوية، ومحاولة إعادة تركيب النفسية من جديد، نجد بأن ثمة حضوراً متصلاً للغة في تثبيت مفهوم التراتبية اللغوية، الذي يعني رقي لغة على أخرى. فهذا دوغلاس روبنسون يقول: "لقد جعلت الإمبراطورية اللغة تراتبية حيث

---

١. بارت، رولان. **درس السيميولوجيا**، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء: دار توبقال، ط3، 1993م، ص25.

لغة القوة الإمبراطورية في القمة، ولغة المسودين المذلين المستعمرين في الأسفل." [١]

ويزداد مفهوم التراتبية اللغوية تعقيداً عندما يختار المستَعمَر لغة المستعمِر لغةَ أدب أو تحدث أو تواصل، اختياراً طوعياً؛ إذ يتجلى حينئذ ضعف هوية المستعمَر إزاء محاولات المستعمِر فرض هيمنته اللغوية والثقافية والسياسية... والاختيار الطوعي اختيار قيمي معرفي أكثر منه رغبة في اكتشاف الآخر أو التواصل معه.

وقد تبدو التراتبية اللغوية مظهراً من مظاهر التمسك باللغة بوصفها إطار الهوية؛ إذ ينظر ابن اللغة إلى لغته على أنها الأعلى والأشرف، وهي القادرة على استيعاب منجز الآخر، فيكيّف ما في اللغة من طاقات اشتقاقية توليدية؛ لإبقاء ثقافته في حالة حضور دائم ومشارك في صنع الحضارة الإنسانية. فينشأ انتماء إلى اللغة الأم، وانتماء إلى الهوية الحضارية للفرد والمجتمع والأمة[٢].

ثالثاً: دور الخطاب الثقافي في بناء الشخصية

أسهم تفاعل الشخصية العربية مع محيطها الخارجي إلى بروز تفاعلات أكبر وأوضح مع مكوناتها الداخلية، لا سيما على مستوى الهوية والبناء المعرفي، فظهرت مصطلحات ومفاهيم كشفت عن هذا الحراك مثل: الهوية، والتبعية

---

١. روبنسون، دوغلاس. **الترجمة والإمبراطورية**، ترجمة: ثائر علي الديب، دمشق: دار الفرقد، 2009م، ص187.

٢. ثمة تنظيرات كثيرة وتمثلات وتجليات اتخذت أشكالاً متنوعة في سياق أنشطة المؤسسات الثقافية، تحدثت عن علوية اللغة العربية.

الثقافية، والاستلاب الثقافي، والغزو الثقافي، والاختراق المعرفي، والانتماء والارتماء، والأمن الاجتماعي، والنهوض الحضاري، والأصالة والمعاصرة، إلخ[١].

ولعل العالم العربي من أكثر المنظومات الجغرافية والديموغرافية والثقافية في العالم، التي تعرضت إلى محاولات تشكّل جديد، منبتة عن منظومته ال معرفية وهويته الحضارية. مما أدى إلى نشوء خطابات ثقافية، لا سيما على مستوى الخاصة والنخبة، تحاول أن تتلمس طريقها نحو الانعتاق عن الآخر، وخوض معركة البناء تنموياً ونهضوياً، وتطوير منهجية مناسبة للتعامل مع الذات والواقع والآخر؛ لإتاحة الفرصة أمام الهوية كي تثبت قدرتها في تشكيل الفعل المجتمعي، والإسهام في تشكيل الوعي اليقظ بمكونات هذه الهوية من جهة، وبكل ما يعمل على محاولة نسقها من جهة أخرى.

إن ما شهده عالمنا العربي مؤخراً ليس ببعيد عن مسيرة الانعتاق، إلا أن له ملامح ومعالم تختلف بنيوياً واستراتيجياً ومعرفياً عما كان في مراحل الانعتاق السابقة؛ إذ لم يعد الوعي مقتصراً على خاصة الخاصة، يمارسون أبويتهم وسدانتهم على باقي شرائح المجتمع، ولم يعد المكوِّن العلمي أساساً للفتق وللرتق، ولإشعال فتيل الحراك، ولم يعد المركز هو الأساس في صنع خميرة التغيير. مما أنبأ بنشوء نوع فريد من الخطاب الثقافي يمكننا وصفه بالخطاب الثقافي المُتجاوز، الذي يتطلب إدراكاً صحيحاً وواعياً لمعطيات التطور التاريخي، ونظرة موضوعية تجاه الذات، واستثماراً للطاقة النفسية و الثقافية والفكرية؛ لتشريح الواقع ورصد مكوناته، ولعل في ذلك نقلاً نوعياً للخطاب من الأهواء والأوهام الذاتية إلى الآليات والشرائط

---

١. استشعرت وزارة الثقافة هذا الهمّ المجتمعي والقيمي، فجاء الهدف الأول من أهداف الوزارة: تعزيز الولاء والانتماء للثقافة العربية الإسلامية والتعريف بها. كما أكدت المادة السادسة من النظام الداخلي لرابطة الكتاب على: التأكيد على هوية الأمة.

الموضوعية. لا سيما أننا نمرُّ اليوم بمرحلة نستطيع القول فيها إننا قادرون على تحديد تصوّر واضح عن طبيعة العلاقة بين التبعية والتخلف والسكون من جهة، والكينونة والخصوصية من جهة أخرى(١).

ولعلي أقول، بشيء من الاطمئنان، إن الخطاب الثقافي هو الأقدر على إحداث الفعل التغييري في المجتمع؛ إذ يتفوق على الخطاب السياسي في طبيعة الفعل والمدى الزمني؛ فالخطاب السياسي محكوم بالنجاعة العاجلة الآنية؛ لاعتماده على المفعول المباشر والذاكرة القصيرة للأثر عند الرأي العام سلباً أو إيجاباً، بينما الخطاب الثقافي يتمثل المدى البعيد والتأثير البطيء وغير المرئي، فهو ذو نتائج مستقبلية عظيمة؛ لأنه يتعلق، بشكل جذري، بإصلاح الرؤية وتوجيه دفتها وتقويمها، وإنتاج الهوية، ومن ثم إعادة تشكيل الواقع في ضوء القيم الإنسانية الرفيعة.

إن ثمة حاجة ماسّة الآن وفي كل عصر إلى تجدُّد الخطاب الثقافي؛ إذ إن الوقائع والنفوس والمتغيرات غير ساكنة، وهذا يتطلب تأطيراً نظرياً تنظيرياً يعمل على إصلاح المجتمع وتجدّده وبلورته. وهذا التجديد لن يؤتي أكله دون إصلاح ثقافي مجتمعي؛ أي الربط بين التجديد والحراك الاجتماعي والسياسي للمجتمع، فهو في النهاية تخطيط ثقافي ولكنه إنجاز مجتمعي، ولن يتجلى إبداعياً إلا بالرغبة في التجديد والقدرة عليه. ومن هنا يغدو الخطاب الثقافي مُعبّراً عن رؤى المجتمع وطموحه، ومُجدّداً للهويات، فقد تكون الهويات مستقرة في مجتمع ما، لكن الخطاب هو الذي يبرزها سلباً أو إيجاباً، ولا تكون الهوية عندئذ موجودة إلا بشكل مستقل عن المتكلمين باسمها، وبذلك يُعاد إنتاج الهوية، أي إنتاج ثقافة تعكس

---

١. يظهر هذا الوعي بأهمية الخطاب الثقافي في رسالة وزارة الثقافة، فقد ركزت الرسالة على "النهوض بالفعل الثقافي الأردني، وإطلاقه في فضاء إبداعي حر، وبناء قدرات المجتمعات المحلية لإدارة الفعل الثقافي وتوظيفه للتأثير على نوعية حياة الإنسان واحترام التنوع الثقافي."

العلاقة مع الآخر، كما تعكس العلاقة مع الذات، وهي علاقة يؤدي فيها التخيّل مهمة مركزية، يتم من خلاله تكوين رؤية للمجتمع تحرص على إخفاء الذاتية، والرجوع إلى الأصل ذي النقاوة، والابتعاد – ما أمكن – عن التلوث بالآخر، ابتغاء المحافظة على طهارة المجتمع، فهو خطاب رؤية مشوبة بالتخيّل، وسرعان ما يتحول إلى ممارسة ثقافية واجتماعية وسياسية، إلخ.

صحيح أن ثمة تحجيماً للفعل الثقافي من أن يكون رائداً في تشكيل المجتمع، وفي صوغ هويته؛ فيمثل سلطة ثقافية تكون أساس المناخ الروحي والقيمي ، وبها تُناط عملية رصد حركات الوعي بجميع تجلياته ونشرها، لا سيما إذا تحولت الثقافة كذلك إلى مؤسسة ؛ إذ يوحي مفهوم مؤسسة بتوحيد الخطاب والجهود في رابطة مصلحية لتحقيق أهداف الوجود المشترك للفرد وللجماعة، وتعبِّر عن التماسك والتكيّف والاستقلالية. إلا أن هذا التكبيل والتحجيم طارئ وذو منحى فوقي، مما يشي بعدم قدرته الكُلِّية في تشكيل الشخصية المجتمعية، ويظل خطابه – عُرفاً وممارسةً – ضعيفاً أمام الخطاب الثقافي. ولكن قد يكون الوضع صعباً إن لمسنا خللاً في بنية الخطاب الثقافي؛ إذ يغدو معوِّقاً لسيرورة التجديد والإصلاح . وهنا يأتي السؤال عن دور المثقف في بناء الشخصية، وفي التعبير عن طموحات المجتمع وتطلعاته، لا سيما بعد التقهقر الواضح للنخب الأيديولوجية ، ومدى قدرة الخطاب الثقافي، حاضراً وعلى المستوى القريب، على النهوض بالثقافة أفقياً من أن تكون تعبيراً عن معارف عامة، إلى أن تغدو نشاطاً إبداعياً ، وعمودياً من أن تكون أداة تثقيف، إلى أن تصبح أداة وعي [1]. لذلك فإن محاولة تجديد الخطاب الثقافي، يتطلب تأسيساً علمياً ومعرفياً، يساعد على وضع الحلول الأقرب والأنسب لما طرأ على المجتمع من تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية، إلخ.

---

١. وهذا خلل في فهم معنى التغيير الثقافي الذي يقتصر على التجليات اللغوية والأدبية، دون أن يتطرق هذا الخطاب إلى المنحى التكويني للفرد والمجتمع. وهذا ما تعبّر عنه الأنشطة الثقافية للوزارة ورابطة الكتاب؛ إذ إن ما نسبته 80-90% من أنشطتهما تتعلق باللغة العربية والأدب العربي. وعلى الرغم من الفائدة التي جنتها اللغة العربية، إلا أن الانعكاس الثقافي على باقي المجالات ظل ضعيفاً.

لا يقتصر دور الخطاب الثقافي على نشر المعرفة والثقافة وتوظيفها، بل إن من أهم أدواره إنتاج الوعي القادر على التطرق إلى قضايا المجتمع ومحاورتها ومعالجتها برؤية منهجية [١]. وإن كان ثمة صعوبة في المعالجة، فيكفي ذلك الخطاب أن يثير الوعي حول القضايا المطروحة، وأن يساعد على بناء الشخصية وتنمية تفكيرها؛ إذ يصبح الخطاب الثقافي، ممثلاً في المراكز الثقافية، مكاناً رحباً لتكوين الإبداع وتنميته [٢]. ولعل إثارة الوعي نابعة من التساؤل والنقد بوصفهما مفردتين رئيستين في الخطاب الثقافي. والخطاب الثقافي بذلك يمارس دوره الطبيعي في تفكيك المنظومة السائدة، وتفحّص مقوماتها ومناقبها ومثالبها، والعمل في الوقت ذاته على تأسيس منظومة مجتمعية صالحة للارتقاء بالمجتمع، لذلك يتحمل الخطاب الثقافي مسؤوليتين كبيرتين: أولاهما: المسؤولية الثقافية من خلال استيعاب ثقافة الأمة، وتمحيص غثّها من سمينها، وتجاوز ذلك بتحديث الثقافة، وأخذ ما يلائم ثقافة المجتمع، فهي تقدم ثقافة واعية وواقعية، ليست مغتربة عن

---

١. ينظر رسالة المعهد العالمي للفكر الإسلامي وأهدافه التي توضّح هذه الرؤية.

٢. ثمة إصدارات كثيرة نتجت عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي تتحدث عن بناء الشخصية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- أبو سليمان، عبد الحميد. **أزمة الإرادة والوجدان**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2004.
- أبو سليمان، عبد الحميد. **جزيرة البنائين**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار السلام بالقاهرة، 2006.
- السيد، عبد الحليم. **الأسس النفسية لتنمية الشخصية الإيجابية للمسلم المعاصر**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2008.
- هلال، هدى. **نظرية الأهلية**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2011.

وعقدت مؤتمرات تبحث في تنمية الشخصية وصوغ رؤيتها، ومنها:

- التكامل المعرفي ودوره في تمكين التعليم الجامعي، 2010
- دور السيرة النبوية في بناء الشخصية الإسلامية المعاصرة، 2011
- الفن في الفكر الإسلامي، 2012

أبناء المجتمع. [1] وثانيهما: المسؤولية الاجتماعية من خلال تفعيل الطاقات المجتمعية تجاه أفكار الخطاب الثقافي ، والتعبير عن ضمير المجتمع، وتقريب المسافة بين المنشود والموجود.

يُعد الاحتضان المؤسسي للخطاب الثقافي من العوامل المساعدة والمؤثرة في تعزيز الخطاب الثقافي في المجتمع، وفي التخطيط لبناء الفرد على أسس علمية. وهذا ما أشار إليه التقرير العربي الأول للتنمية الثقافية الذي صدر عن مؤسسة الفكر العربي؛ إذ رأى التقرير أن المؤسسات الثقافية العربية (حكومية وأهلية وخاصة) تتحمل مسؤوليات جسيمة وشاقة، لما يواجهه العالم العربي اليوم من تحديات حضارية وثقافية، وتعود جسامة المسؤولية إلى كون كل المؤسسات مطالبة بأن تسهم في فك الحصار الثقافي الحضاري المهدد للهوية القومية، وذلك من خلال:

أ- إحياء الصورة الإيجابية للثقافة العربية لدى الآخر الأجنبي، لمحو الصورة السلبية التي أصبحت ترسم للعرب في المخيال الثقافي الأجنبي.

---

١. لقد ركزت أهداف وزارة الثقافة على تنمية ثقافة وطنية شاملة في المملكة بما يؤكد هويتها بوصفها ثقافة: أردنية عربية إسلامية إنسانية. مما يعزز من دور الثقافة في البناء الحضاري، وقد تجلى ذلك في بعض إنتاجات الوزارة، وظهر كذلك في تيسير التفاعل الثقافي من خلال نشاطات المدن الثقافية وإصدارات مكتبة الأسرة، وإدماج كثير من المؤسسات تحت مظلة وزارة الثقافة. و لعل جلَّ الندوات والمؤتمرات الصادرة عن مؤسسة عبد الحميد شومان، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، تبحث في كيفية استعادة الأمة لدورها الحضاري والريادي. ينظر على سبيل التمثيل الكتب الصادرة عن مؤسسة عبد الحميد شومان:

-الثقافة العربية وأسئلة التنمية والتحديث.

- أسس التحديث والتنمية العربية في زمن العولمة.

ولعل الكتب والمؤتمرات والأبحاث التي نشرت في مجلة إسلامية المعهد، أكثر من أن تحصى في هذا المقام؛ إذ إن معظم ما أنتجه كان منسجماً مع رؤية المعهد المتمثلة في محاولة استعادة الأمة لدورها الحضاري.

ب- تفعيل النشاط الثقافي داخل الوطن العربي من خلال رسم مخططات مستقبلية، تخرج الثقافة العربية من وضعية دينامية التجدد والتطور والانفتاح على ثقافة الآخرين.

ج- جعل الثقافة إلى جانب الاقتصاد والسياسة شرطاً في تحقيق التنمية الاجتماعية الحضارية المستدامة.

د- فتح قنوات الاتصال والتنسيق التعاوني بين كل المؤسسات الثقافية العربية على المستوى القطري والإقليمي والكلي[١].

يفترض في الخطاب الثقافي أن يعبّر عن هوية المجتمع إن كان محلياً، والأمة إن كان عالمياً، ويتطلب ذلك أن تكون مرجعيته متسقة مع هوية المجتمع ؛ إذ يساعد المجتمع على تحديد أولوياته: داخلياً وخارجياً ، وينظّم قضايا المجتمع وقضايا الأمة بما يتسق مع هوية المجتمع وطموحاته وآماله.

قد يعاني الخطاب الثقافي في أي مجتمع من خلل واضح في مسيرته الثقافية، ولهذا أسباب متنوعة: داخلية وخارجية؛ ذاتية وموضوعية؛ لحظية وتراكمية؛ إلخ. وقد عمل هذا الخلل على عدم وضوح هوية المجتمع وماهيته، وإلى حدوث الارتباك الثقافي. ولعل من أهم أسباب هذا الارتباك عدم تحديد مرجعية الخطاب الثقافي، لا سيما في ظل صراع قيمي ثقافي، سُخّرت له أحدث التقنيات، فغدا الخطاب الثقافي، صدىً لغيره من الخطابات الثقافية والمعرفية المركزية (أوروبا وأمريكا)، على الرغم من اخ تلاف بنية النظام المعرفي لكل ثقافة. وفي خطابنا الثقافي، المتسق مع هوية الأمة، ثمة نظام معرفي واضح يحدد الرؤية الكلية لأبناء الثقافة العربية الإسلامية، وتنعكس معالم هذا النظام المعرفي على

---

١. التقرير العربي الأول للتنمية الثقافية، مرجع سابق، ص659-660.

مجالات الحياة كلها، وهذا كان له دور كبير في المحافظة على تماسك الأمة والمجتمع، وإبقاء هويتها واضحة المعالم على مر العصور، فلا إملاءات ثقافية ومعرفية وسياسية واقتصادية واجتماعية ...، تتعارض مع هوية المجتمع.

في خطابنا الثقافي، المتسق مع هوية الأمة، ثمة نظام معرفي واضح يحدد رؤية الإنسان للإله والإنسان والكون، وتنعكس معالم هذا النظام المعرفي على مجالات الحياة كلها. وهذا كان له دور كبير في المحافظة على تماسك الأمة والمجتمع، وإبقاء هويتها واضحة المعالم على مر العصور. فلا إملاءات ثقافية ومعرفية وسياسية واقتصادية واجتماعية وقانونية...، تتعارض مع هوية المجتمع.

وينبغي للخطاب الثقافي أن يلاحظ ذلك الاتصال الوثيق بين ما صاغه النظام المعرفي للأمة والمجتمع – وهو في حالتنا الثقافية، النظام المعرفي الإسلامي، على مستوى التفكير والعطاء الحضاري والثقافي – والحقوق الطبيعية للمجتمع؛ فما يُسمى حقوق الإنسان الطبيعية عقلاً هو ما نسميه الضروري من مقاصد الشرع نقلاً؛ فمقصد النفس شرعاً هو حق الحياة عقلاً، ومقصد العقل هو حق حرية الفكر، ومقصد العرض هو حق الكرامة، ومقصد المال هو حق الملكية، ومقصد الدين هو حق حرية المعتقد.

إن نجاح الخطاب الثقافي على استيعاب التحولات والمنعطفات الخطيرة وتجاوزها، يعتمد على قدرة هذا الخطاب في تمثّل هوية مجتمعه، وإحداث الاتساق الثقافي؛ إذ يتحقق هذا الاتساق إذا كانت وجهتا الأفراد السلوكية والاقتصادية متناغمتين، فتكون كل أركان الثقافة متجهة وجهة واحدة لا تتناشز ولا تتناقض. وعدم الاتساق الثقافي وتنافر عناصر الخطاب الثقافي مدعاة إلى ضعف ثقافة المجتمع مما يهدد كيانه ووجوده.

يُعدّ استحضار الماضي في الخطاب الثقافي عاملاً مهماً في تثوير العقلية العربية وتحريك الأحاسيس من أجل استجلاب الشهود الحضاري الأول، الذي شكّلته

الحضارة العربية الإسلامية، ومن ثم تجاوز ذلك إلى محاولة وضع البرامج المناسبة للحاضر، من أجل استشراف المستقبل . ولا يعني الاستحضار بكائيات على ماضي تليد وفردوس مفقود، ولا مباهاة بإنجاز حضاري نعلّقه زينة في كل خطاب أو منهاج، بل هو تقريع للذات عن تقصيرها بحق هويتها ومنجزها الحضاري، ولا يشكل الماضي بتراثه وإنجازه عندئذ عبئاً على كاهل المثقف أو المفكر، بل تصوراً رؤيوياً للمستقبل، ينأى بالذات عن أن تمارس الاستجداء الثقافي والمعرفي والفكري.

إن البحث في الأسباب التي أدّت إلى تشوّه الرؤية في الخطاب الثقافي هو من الأولويات القصوى في محاولة البحث عن الذات ؛ إذ عن طريق تفحُّص الأسباب نستطيع تبيُّن العجز الذي أصابنا في تحديد بوصلة التعامل مع الذات ومع الآخر، مما سينعكس على بناء الشخصية القادرة على صوغ المشروع الحضاري، لتمارس دورها الطبيعي في أداء مهمة الاستخلاف التي شرفها الله بها.

يحتاج الخطاب الثقافي لتفعيل خطابه إلى مناخ مناسب ومهيء لإحداث الحراك الثقافي في المجتمع . وتُعدّ الحرية أهم متطلبات سيرورة الخطاب الثقافي؛ فالحرية إحدى المصالح الأساسية والضرورية التي يقوم عليها المجتمع . وبما أن الخطاب الثقافي هو خطاب نقدي تغييري، بالمعنى المجتمعي للتغيير، فإن الحرية وخطابها من مرتكزات رؤيته وعمله، لذلك ينبغي أن تتجلى الحرية في المساحات المعرفية والمجتمعية للخطاب الثقافي، وأن يُبنى الخطاب الثقافي منهجياً عليها.

وقد يحدث أن يتحول الخطاب الثقافي من عامل مهم في التواشج الاجتماعي، إلى مِعول هدم في النسيج الاجتماعي ؛ إذ إن من متطلبات النهوض الثقافي حدوث انسجام وجداني بين أفراد المجتمع، مبتعدين فيه عن البغضاء والشحناء. وغياب العدالة سيدفع بعض المثقفين إلى تغيير الانتماء في أسوء الحالات، وإلى الارتباك في الانتماء في أفضلها. وعندئذ سيحدث صراع بين الخطابات الثقافية، مما يشكل حالة من الهدر الثقافي والمهاترات الثقافية التي تبتعد بشكل كلي ومقصدي عن طبيعة الحراك الثقافي الذي ينتج طحناً.

ثمة أزمات قد يعيشها الخطاب الثقافي، ومن أهمها الأزمة المعرفية، وهي تتعلق بقدرة المثقف على الموازنة بين بنائه الثقافي الذي عاش فيه، وصاغ فكره وشخصيته، والبناء الثقافي والمعرفي للأمم والمجتمعات الأخرى . لقد انعكست هذه الأزمة المعرفية على البناء النفسي والفكري للمثقف في بُعدين مهمين هما: الاغتراب والتبعية الثقافية. أما الاغتراب فهو انسحاب من ممارسة الفعل الثقافي في المجتمع. وبناءً عليه فقد المثقف الحقيقي أحد أبرز مقوماته ، وهو تفاعله مع مجتمعه وقضاياه. ولا يعني الانسحاب عدم الحضور على الساحة الثقافية، بل يعني الانطلاق في الرؤية والتفكير من منطلقات لا تمتُّ بصلة إلى ثقافته وحضارته وهمومه وقضاياه، ومثال ذلك الخطاب الثقافي المتعلق بقضايا الأسرة والتنشئة الاجتماعية، المنبثق من منظومة معرفية غربية، تُعلي من قيمة الفرد على حساب المجتمع . وكذلك الحديث عن المرأة ، والجندر ، والخطاب النسوي، ودور الإسلام في الحياة المدنية، والخطاب الإسلامي،... .

أما التبعية الثقافية ؛ التي تعني نمط العلاقة ال ذي يجعل بعض الثقافات تعتمد اعتماداً بنيوياً في إنتاج القيم والمعاني والأفكار والمعارف على ثقافات أخرى، فهي إلغاء هوية المثقف وذاتيته . وهي رغبة ذاتية أكثر منها سيطرة ؛ إذ تمثّل استلاباً ثقافياً وقابلية للاستعمار أو العقل الكَلّ على حد قول مالك بن نبي . ولهذه التبعية آثار سلبية على الخطاب الثقافي؛ إذ يفقد الخطاب الثقافي بوصلته في التعامل مع الواقع والتراث والهوية؛ "فقد أدّت عملية نقل الفكر من الخارج إلى عدم توفر التربة الخصبة لاختبار هذه الأفكار من ناحية ، أو لبروز أفكار وقضايا نوعية توضح خصوصيات المجتمع العربي في علاقاتها بالقوانين العامة لتطور المجتمع الإنساني."[1] ويبرز عندئذ ما يُسمى عند علماء الاجتماع بظاهرة العقل الأسير، الذي يغترب عن القضايا الأساسية للمجتمع و عن معتقداته الوطنية وعن

---

١. عبد المعطي، عبد الباسط. **الوعي التنموي العربي**، القاهرة، دار الموقف العربي، 1982، ص201.

بنائه الأسري[١].ويحدث بذلك مسخ للهوية يؤدي إلى قطيعة مع الأصل، وإلى قطع الذات عن العلاقات الفطرية ومجالاتها الحيوية. وحالة الفصام هذه ستؤدي إلى انسلاخ الإنسان عن ذاته وذاكرته ، ضمن محور يحاول محو الذاكرة الحضارية وقطع النفس عن ذاكرتها التراثية[٢].

ثمة عوائق تحول دون فاعلية الخطاب الثقافي في بناء الشخصية، وتهذيب المجتمع، ونستطيع تأطير هذه العوائق في المستويات الآتية:

1. مستوى الرؤية:

فرضت التغيرات والتحولات التي طرأت على بنية المجتمع أن يبلور الخطاب الثقافي رؤية قادرة على تجاوز الضعف الذي سيطر على الخطاب الثقافي في العقد المنصرم . ونستطيع أن نجمل العوائق التي أسهمت في غياب الخطاب الثقافي على مستوى الرؤية في الأمور الآتية:

أ- ضعف التمثُّل القيمي في تنظيرات الخطاب الثقافي:

إن حياة الإنسان في الكون تتقوّم بمنظومة من القيم، تحدد تصوراته وعلاقاته وأعماله الظاهرة والباطنة. وتُعدّ القيم والأخلاق محددات وضوابط لسلوك الناس،

---

١. غطاس، سيد حسين. العقل الأسير والتنمية الخلاقة، ترجمة: عباس محمود عوض، **المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، مجلة رسالة اليونسكو**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد الحادي والعشرون، السنة السادسة، أكتوبر/ ديسمبر 1975، ص20.

٢. نستذكر هنا مقولة ابن خلدون المشهورة "المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شِعاره وزيّه ونِحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد في من غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وفر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتّصل لها اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه، والله اعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما أنحلته من العوائد والمذاهب... ولذلك ترى المغلوب يتشبه بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها وفي سائر أحواله." انظر: – ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص510.

تميّز النوع الإنساني عن غيره من المخلوقات، ولذلك فإنها ترتبط بمتطلبات الاجتماع الإنساني والعيش المشترك، كما ترتبط بالكرامة الإنسانية. وبذلك تغدو القيم تحقيقاً للمشيئة الإلهية . وتفعيل القيم لا يتم إلا بتحرك بشري يُحوّل الأمر الإلهي إلى واقع معاش على الأرض؛ إذ إن الإنسان لا يعيش إلا في مجتمع؛ فالتجمع الإنساني فطرة بشرية. وهنا تبرز الأهمية الكبرى للقيم؛ إذ تكمن أهميتها في فطريتها البشرية ، التي تتجاوز حدود الخطاب العرقي والديني واللغوي والجغرافي، فهي ذات بُعد إنساني متكئ على الفطرة والعقل واللغة؛ وهي موجودة في فطرة كل إنسان ولكنها تحتاج إلى تنمية؛ ومنطق العقل يؤكد البعد الإنساني المشترك في القيم؛ فالإنسان العاقل لا يقبل أن يوصف بالظلم أو الخيانة أو الكذب، ومنطق اللغة يؤكد البُعد الإنساني كذلك؛ فألفاظ الظلم والخيانة والكذب في كل لغات العالم تثير في النفس النفور والاشمئزاز، وألفاظ العدل والوفاء والصدق في كل لغات العالم تثير في النفس الراحة والسكينة.

إن تحويل القيم من إطار نفسي عُلْوي إلى تأطير إجرائي، يتطلب تحديداً لموقع القيم في الحياة العامة؛ إذ نلحظ أن قضايا القيم والأخلاق في كثير من المؤسسات تُذكر في سياقين، وكلاهما يتعلقان بالنصوص التشريعية؛ الأول عند تحديد رؤية المؤسسة ورسالتها وأهدافها العامة، وترد في نصوص عامة إنشائية، والثاني عند تحديد مواد الأنظمة والتعليمات الخاصة بالعقوبات والإجراءات التأديبية المترتبة على مخالفة العاملين في المؤسسة لتلك التعليمات، وتأتي في نصوص إجرائية محددة. ونرى أن من الضروري القيام بتحويل جذري في طبيعة الاهتمام بالبُعد القيمي والأخلاقي، من الاتجاه السلبي الذي يركّز على معالجة المخالفات عند وقوعها، إلى اتجاه إيجابي يركّز على تعليم القيم بطريقة تمنع وقوع المخالفات. وهذا يعني أن الإعلاء من شأن القيم في الحياة العامة، سوف يتطلب من مؤسسات المجتمع اتخاذ الإجراءات المتنوعة التي تُعزز التوجه الإيجابي في التفكير بالقيم والتعامل معها، وتُعين في بناء مناخ أخلاقي في المؤسسة يُسهِم فيه

التشريع والتوجيه، ويسود فيه الالتزام بالسلوك القيمي من جميع أفراد البيئة الاجتماعية والمؤسسية ، وتتعاضد فيه القدوة الحسنة في مختلف مستويات المسؤولية. وهذا المناخ الذي يدعو إلى الالتزام بالمعايير القيمية والأخلاقية ويشجع عليها، هو الذي يضيّق فرص وقوع المخالفات ويُقلّل منها[1].

في ظل التطورات والتحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية ...، فُرضت على المجتمعات جميعها أن تنشئ أو تطوّر أو تبلور منظومة قادرة على التعامل مع هذه التطورات، برؤية تعطي قدراً معتبراً للذات ولهويتها الحضارية، وقدراً آخر لما يطرأ على ثقافة المجتمع. وإن لم يستطع الخطاب الثقافي أن يعي هذا التطور وتلك المستجدات فإنه سيسير في طريق مجهول، له آثاره السلبية على بناء الذات وتشكيل المجتمع. ولعل المدخل القيمي مدخل مناسب للخطاب الثقافي ك ي يخاطب المجتمع؛ إذ لا يختلف اثنان على أهمية القيم، وأن حضورها عاملٌ في استقرار حياة الفرد، وفي تماسك المجتمع نفسياً وثقافياً واجتماعياً، إلا أن ثمة تفاوتً قد يحدث عند تحديد الإطار المرجعي لهذه القيم، لا سيما في ظل الهيمنة الثقافية للغرب (المركز) على المنظومة الثقافية لباقي المجتمعات والثقافات (الهامش) ؛ إذ غدت المؤتمرات والملتقيات والمناهج تدعو إلى توحيد منظومة للقيم لا تراعي خصوصيات الثقافات وهوياتها، وإلى تنميط القيم؛ انطلاقاً من أن الغرب المتقدم قادر على التفكير نيابة عن الآخرين، وأن عبء نقل الحضارة بكل متعلقاتها منوط به. ويستطيع المراقب أن يلحظ الآن أن ثمة قرارات دولية تتعلق بالقيم، تتناقض والرؤية القيمية لمجتمعنا ؛ إذ عدّت الثقافة الغربية منطلقاً ومعياراً ومآلاً لجميع الثقافات، وغدت الثقافة الاستهلاكية المرتبطة بالأ فلام والمناهج مِعْولاً يقصي

---

١. انظر: ملكاوي، فتحي حسن . التأصيل الإسلامي لمفهوم القيم، **مجلة إسلامية المعرفة** ، السنة الرابعة عشرة، العدد 54، خريف 2009، ص10.

الثقافة الخاصة بالمجتمع المحلي أو القومي، ووصل الأمر بالدعوة إلى تهميش القيم، انطلاقاً من ارتباط هذه القيم بالأيديولوجيا. وهذا يُحمّل الخطاب الثقافي مسؤولية أخلاقية وأدبية في أن يكون المنا فح عن البُعد القيمي للمجتمع، والمرتبط بهوية الأمة ومرجعيتها؛ إذ إن الخطاب الثقافي، ويتضمن ذلك الرؤية الدينية، هو المؤهل لتحمل هذا العبء؛ فالسياسي يحكمه مبدأ المصالح والمكاسب، والغاية تبرر الوسيلة، والاقتصادي يسير في ركب العرض والطلب، إلخ.

إن استثمار الخطاب الثقافي للبُعد القيمي سيمكّنه من تنظيم المجتمع أخلاقياً، من خلال إدماج المفاهيم الأخلاقية في الحياة العامة: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأكاديمية ؛ إذ سيسهم الخطاب الثقافي في إنتاج القيم وإشاعتها في المجتمع من خلال البرامج الثقافية؛ بجميع تمثلاتها، مما سيؤثر بعد ذلك في التنشئة الاجتماعية ؛ فيتأسس الفرد على مبادئ وقيم نابعة من هوية المجتمع، فيصبح هذا الفعل مقابلاً منطقياً للتحلل الاجتماعي الذي تتجلى مظاهره في الجوانب السياسية والاقتصادية والقانونية والتربوية والثقافية.

ويمثل البُعد الاجتماعي المتصل بالإنسان والمكان والثقافة، أساساً مهماً في ساحة أخلاقيات الفعل الإنساني، وينبغي للخطاب الثقافي أن يلحظ هذا المنحى في تأسيس الأخلاق مجتمعياً؛ إذ "بمجرد الانتقال من دائرة البيئة إلى فضاء أخلاقيات الفعل الإنساني المتمثل في تحريك معطيات المكان والزمان، يصير الإنسان أمام آثار ملموسة قابلة للقياس، تستدعي الشريعة لتقنينها، وضبط آلياتها، والتعمق في آفاق استلهامها، ونشر الوعي بها في الجسد المجتمعي، مع استمرار منظومة القيم في أداء دورها. وتظهر هنا ضرورة النسيج الاجتماعي المحسوس والحي، فالأمانة التي تحمّل بها الإنسان هي: التحريك الأخلاقي لمعطيات الزمان والمكان للانتفاع بها في تحقيق العمران ... ومن نسيج العلاقات والتفاعلات الاجتماعية المحسوسة يتشكل البُعد الأخلاقي للسلوك الإنساني . والتفاعل الإنساني علاقة تكاملية لها

بعدان أساسيان: الحاجة، واستحالة إشباع تلك الحاجة بغير المعيّة والتساند، ولا موضع للحديث عن الإنصاف والقيام بالأمانة إلا في ظل معاملات إنسانية، بين أناس متفاوتين في القدرات، ولكن أحداً منهم لا يستطيع أن يستغني بنفسه عن غيره. ومهما انحرف المجتمع أو استقام فإن إرادة البقاء تظل بحاجة إلى نظام أخلاقي [١]".

ب- غياب الأفق الاستراتيجي القادر على تحديد الأهداف:

إذ يعاني الخطاب الثقافي من آنية التخطيط والتنظيم والتنفيذ، لذلك تأتي التوجهات الثقافية بعيدة عن الإطار العلمي الذي يضبط الفعل الثقافي، مما يجعل الخطاب الثقافي غير مؤهل لاستشراف المستقبل. ونستطيع أن نستكشف ذلك الخطاب المبني على ردة الفعل، فبدلاً من أن يكون الخطاب الثقافي متقدماً في تغيير المجتمع ورصد تحولاته، غدا متلقياً ووعاءً للأفعال والرؤى التي يضعها السياسي والاقتصادي، فتراجع دوره في التساؤل والنقد والصنع.

ج- غياب العقل الناقد:

إن ما يميز العقل الناقد أنه يستطيع تلمُّس مواطن القصور في تشكُّل الخطاب وفعله وإنتاجه، وهو لا يستكين إلى الوضع القائم، فمهمته التطوير والتغيير من أجل الارتقاء بالمجتمع. والعقل الناقد لا يتشكل في ظل منظومة ثقافية وتربوية لا تتأسس على التربية الانتقادية؛ إذ إن أسلوب التلقين والترديد ، وردّ البضاعة إلى أهلها ، وإغلاق باب الاجتهاد، معيقات أمام نمو العقل الناقد . ولعل غياب العقل الناقد يظهر بشكل سافر في استنساخ الخطاب الثقافي؛ إذ تبرز

---

١. عمر، السيد، النسق السياسي للأسرة في المنظور الإسلامي، مؤتمر **واقع الأسرة في المجتمع: تشخيص للمشكلات واستكشاف للسياسات الموجهة**، تنظيم: جامعة عين شمس ومركز الدراسات المعرفية، القاهرة، 2004، ص353.

الكتابات المكررة التي تتضمن المضمون الثقافي نفسه ولكن بصياغات بلاغية مختلفة، وهذا يعمل على تسطيح الخطاب الثقافي، مما سيؤدي إلى نزع البُعد الرؤيوي عنه.

د- غياب فقه الأولويات:

يتعلق فق ه الأولويات بقدرة العقل الناقد على رسم استراتيجية قادرة على تمييز القضايا من المشاكل، والمحلي من القومي، والكلي من الجزئي، والضروري من الحاجي والتحسيني، والفردي من الجمعي، إلخ. وعدم الوعي بترتيب الأولويات حسب أهميتها زماناً ومكاناً وإنساناً وظروفاً وموضوعاً، سيجعل الخطاب الثقافي في انفصام نظري وعملي مع مجتمعه. ولعل غياب فقه الأولويات نتيجة طبيعية لغياب فهم الواقع والوعي النقدي به، وملاحظة التطورات والتغيرات التي تطرأ عليه، وإعمال المنهجية العلمية فيه.

2. مستوى الخطاب:

يُعدّ مستوى الخطاب تمثّلاً وتجلياً لمستوى الرؤية، ونجد في هذا المستوى عوائق ذاتية تتعلق بتصورات المثقف وتطبيقاته، وأخرى موضوعية يصوغها المجتمع بأطيافه. وتبرز أهم العوائق في هذا المستوى في الأمور الآتية:

أ- نخبوية الخطاب والمتلقي:

كما لاحظنا فإن الضرورة تقتضي أن يفهم المثقف واقعه ومجتمعه، كي يكون قادراً على صوغ خطابه؛ إذ إن خطاب المثقف موجه بالأساس للمجتمع، فمهمته العمل على تغيير المجتمع وتوعيته، وهذا يحتاج إلى أن يصوغ المثقف خطاباً بعيداً عن المثالية ، التي تبتعد عن هموم المجتمع وقضاياه، وبعيداً عن

التقعر الثقافي؛ أي الافتراض المسبق أن طبقات المجتمع على تنوعاتها العقلية والفكرية والاجتماعية والنفسية تعي ما يتفوه به المثقف، فتغدو كتابات المثقف ترفاً فكرياً وثقافياً لا يحقق دور المثقف تجاه مجتمعه. وتبسيط الخطاب لا يعني سطحيته وضحالته؛ إذ إن السطحية تتعلق بالأفكار والمضامين، بل يعني اختيار اللغة المناسبة للخطاب ، والأسلوب الناجح في مخاطبة المجتمع. وهذا ما يمثله الخطاب الثقافي الغني، الذي يشعر فيه كل من يتناوله أنه قريب منه، ومِن فهمه، ويعبّر من طموحاته وآماله.

إن نخوبية الخطاب والمتلقي تؤدي إلى تماهي المصطلحات والمفاهيم ، فتختلط آنذاك مهمة المثقف بالفيلسوف أو المفكر؛ إذ يُقبل من الفيلسوف أن يمارس دوره في الحديث عن البُعد التنظيري النظري للمجتمع وكذلك المفكر، ولكن المثقف هو الذي ينقل الأفكار من أن تكون مجردة وربما مثالية، إلى أن تغدو واقعية تلامس المجتمع. كما أن نخبوية الخطاب الثقافي سيؤدي إلى عزلة المثقف وربما تهميشه؛ لأنه عاجز عن أداء دوره الحقيقي في مجتمعه.

ب- الخطاب العاطفي:

إن بروز الخطاب العاطفي لا سيما في مستوى الكتابة، مؤشر على أن العقل ابتعد عن برهانيته، وغدا عقلاً متكئاً على الحماس دون تقديم مسوغات منطقية للقضية التي يتعرض لها، كما أنه مؤشر على عدم قدرة المثقف على مجاراة السياسي في تخطيطه العلمي لبناء المجتمع، وهو دليل كذلك على أن الخطاب الثقافي ذو مدى قصير أو متوسط (وهو ليس كذلك)؛ إذ يهتم بالتأثير الوجداني لا التنظيم العقلي، مما سيؤدي بالمجتمع إلى أن يتفاعل لحظياً مع هذا النوع من الخطاب، إلا أنه سرعان ما يتخلى عن هذا الخطاب إذا تأمله قليلاً. إن عوار الخطاب الثقافي العاطفي يظهر عند الأزمات، إذ يتفاوت الخطاب ال مبني على

أسس علمية،[1] عن الخطاب الإنشائي المتكئ على الأماني والعواطف، وسيتحول الخطاب الثقافي آنذاك إلى غياب في ظل الحضور.

ج- الثنائيات:

لقد تشكّلت في دائرة الخطاب الثقافي ثنائيات مصطنعة كان لها دور في انحراف الخطاب الثقافي وعجزه عن أداء دوره في ت كامل المجتمع؛ إذ ساعد الخطاب الثقافي على تشكّل هذه الثنائيات في دوائر مستقلة منفصلة وربما متضادة. ومن أهم هذه الثنائيات الأصالة والمعاصرة، ودوائر الانتماء إلى المجتمع، كأن ينتمي الإنسان إلى العشيرة والمنطقة والدولة والأسرة، فيحدث أن يكون الحرف (أو) عاملاً في إحداث القطيعة بين الثنائيات.

إن هذه العقلية التجزئية التي تنظر إلى الأمور نظرة مفاصلة ، لا يمكنها أن تصوغ شخصية قادرة على النظر إلى المجتمع نظرة تكاملية تؤمن بتداخل الدوائر ، التي يُظن بأنها مستقلة ومكتفية بذاتها ، دون الحاجة إلى الدوائر الأخرى في المجتمع. ولعل في ذلك إيحاءً بغياب ثقافة الحوار، والتربية الحوارية.

رابعاً:مكانة اللغة في الخطاب الثقافي

تحدث التقرير الرابع للتنمية الثقافية الذي صدر عن مؤسسة الفكر العربي عام 2010، عن وضع اللغة العربية في الوقت الحاضر [2]؛إذ يشير التقرير إلى تراجع موقع اللغة العربية في الخارطة الثقافية والتربوية العربية، وإلى إخفاق المشاريع المتعلقة باللغة العربية، نتيجة عدم الثقة بالقيّمين عليها، لا سيما أن

---

١. لا أقصد بالعلمي هنا المصطلح الفني بل الخطوات المنهجية المتبعة في التوصل إلى المعلومة.

٢. انظر التقرير من ص650-700

المهرجانات والتظاهرات المتعلقة باللغة، التي أقيمت في بعض الدول العربية لم تؤد إلى نتيجة(١).كما أن نسبة اللغة في الدوريات الثقافية لم تتجاوز 7%.

تعد قضية الانتما ء إلى اللغة والهوية من القضايا الشائكة، التي تؤرق العاملين في حقل السياسة اللغوية أو التخطيط اللغوي في أي زمان ومكان؛ إذ تتمحور هذه القضية حول موقع الفرد وموقفه من هويته، والأسس المعرفية والاجتماعية التي صاغ منها شخصيته، وعلاقته مع الآخر، فها هو ابن حزم الأندلسي يرى أن العلاقة بين ارتقاء اللغة وارتقاء الأمة علاقة وطيدة؛ إذ إن "اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم... فإنما يقيّد لغة الأمة علومها وأخبارها قوةُ دولتها ونشاط أهلها وفراغهم" (٢). وهذه نظرة عميقة من ابن حزم في الربط بين اللغة ومكانتها، ودور الأمة في سمو اللغة.

ثمة اتصال كبير بين اللغة والخطاب الثقافي يبرز من كون الخطاب في أصله وحدة لغوية تهدف إلى التواصل. وفي تحليلنا لأي خطاب نأخذ بعين الاعتبار المحتوى اللغوي والسياقات التي نشأت في ظلها النصوص. ويمنحنا النموذج الوظيفي الذي يربط اللغة بالاستعمال فرصة جيدة للتعرف على دور اللغة في الخطاب الثقافي؛ إذ يُوظف السياق والنص والمنُشئ والمخاطَب لتجلية مكانة اللغة في الخطاب، ومكانة الخطاب في ظل المنظومة المجتمعية بشكل عام.

---

١. إن تخصيص وزارة الثقافة فعاليات شعرية ونقدية ضمن مهرجان جرش، وتعاون رابطة الكتاب معها في تنفيذ هذه الفعاليات، قد يعزز من مكانة اللغة العربية شعورياً، ولكنه لا يخدمها تنموياً وحضارياً؛ إذ يحتاج ذلك إلى بلورة مشروع تنموي للغة العربية، تكون أهدافه واضحة، وبرامجه متسقة مع هوية المجتمع وضرورات العصرنة، وفئته المستهدفة مهيئة لقبول اللغة وتطويرها، على أساس أن اللغة مكون ثقافي حضاري لا تواصلي فحسب.

٢. ابن حزم، علي بن أحمد. **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط1، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1983م، ج1،ص32

يرى النموذج الوظيفي أن الخطاب عبارة عن مجموعة من الجمل أو القضايا ذات البعد الثقافي؛ إذ يحيل على معطيات غير لغوية، ومن ثم يلح على العلاقات الضمنية القائمة بين الخطاب والسلوك الثقافي. ويرتكز النموذج على فرضيتين أولاهما: تتوفر اللغات على وظائف خارجة عن النسق اللغوي، وتؤثر هذه الوظائف الخارجية على التنظيم الداخلي للنسق اللغوي. ومعنى ذلك أن دراسة الخطاب هي دراسة لكل مظاهر الاستعمال اللغوي، وثانيتهما: ثمة ارتباط جذري بين الخطاب والسياق؛ إذ يتم توظيف نماذج التكلُّم لتحقيق أغراض محددة في سياقات محددة.

وبناء على النموذج الوظيفي لا بدّ أن يكون ثمة مكانة للغة في الخطاب الثقافي، ويُسهم في إبراز هذه المكانة طبيعةُ الخطاب الثقافي المتصل بهوية الأمة، التي تستند إلى مرجعية دينية وثقافية تُمجد اللغة العربية، والمتكئ على إرث لغوي عميق ما زالت معالمه كما هي منذ ما يقارب خمسة عشر قرناً، فضلاً عن الإنسان الذي يرى في اللغة عاملاً من عوامل وحدته مع إخوانه في المنظومة العربية ضمن الإطار القومي. لذلك تصبح اللغة في الخطاب الثقافي مقياساً لمدى انتماء المثقف إلى منظومة الأمة.

وعلى النقيض من ذلك نُمثّل على مكانة اللغة في الخطاب الثقافي بشكل معاكس؛ أي بالصورة السلبية، بما أحدثه خطاب بعض المثقفين الحداثين من محاولة تكسير معيارية اللغة. فلِذا كانت الحداثة تدميريّة للتّراث والقيم السّكونيّة والقواعد والأنماط، وهدماً للشعر التقليدي الاتّباعي، فإنّ هدم اللغة وتدميرها هدف أساسيّ من أهدافها. ولعل الأمر متّصل بما تمثّله اللغة من وعاء ناقل للتّراث ، حاملٍ لقِيمه وفكره ونظامه المعرفي، وبما تجسِّدُ قِيَمه الجماليّة النابعة من رؤيته للجمال، وفهمه الفلسفي المعرفي لمعنى الوجود. هكذا، نجد الحداثة تنظِّرُ لتدمير

اللغة من الدّاخل سعيًا إلى تدمير "القواعديَّة فيها، ومحاولةً لإعادتها إلى بناها اللا قاعديَّة اللا متشكِّلة، ويتمّ ذلك في الحداثة عن طريق تدمير بنية الجملة الدّالة بما هو نسَق واضح من القواعد المنفّذة، وتحويل الجُملة إلى سلسلة من الإمكانات والتّداخُلات" (١).

وقد يغدو الحديث عن إعادة تشكيل اللغة بوصفها شكلاً من أشكال التواصل والتمثّل، مقبولاً في ظل التطور الطبيعي للغة، فهي كائن حي يخضع للزيادة وللنقصان، وللتحجر وللموت وللرعاية...، ولكن يحق لنا النظر أيضاً بعين الريبة والشك تجاه هذه الدعوات؛ إذ إنها ارتبطت بمقصد فكري ومعرفي طارئ، هدفه التقويض والتفكيك، ضمن مخطط يهدف إلى بناء اللغة بفكر يناقض ثقافة الأمة، ويخالف ما ثبت نصّاً وعقلاً وفطرة. فماذا يعني أن ما تمّ في الإطار اللغوي الحداثي من استعمال للغة هو من باب التخييل والرمز لا من باب الحقيقة والواقع، وأن ما تقوله لغة الشعر، لا ينظر إليه بمعيار الإيمان والكفر. وأن على الشاعر"أن يخرج الشعر من إطار العلاقة مع الله وأشيائه، إلى إطار العلاقة مع العالم وأشيائه. وهو بذلك، يخرج اللغة من مهدها الإلهي، ويقذف بها في طين الجحيم اليومي، أو الجنة اليومية." (٢)أي تخرج من معياريتها التي حافظ عليها القرآن الكريم إلى وصفيتها التي تؤخذ من أفواه العامة.

إنّ المسعى الأساسي لتدمير اللغة عند الحداثيّين ليس كامناً في البنية النّحوية للجملة، ولا في الأبنية الصوتية والصرفية؛ إنّما في المنظومة الدلالية (٣). واللغةُ التي لا "تحترفُ الانشقاقَ والنُّقصانَ، أي الخروجَ على النمطية الوهميّة

---

١. أبو ديب، كمال. الحداثة، السّلطة، النّصّ، **مجلّة فصول**، الجزء 1، 1984، ص47.

٢. أدونيس. **الثابت والمتحول: الأصول**، ط3، بيروت، 1982، ص114.

٣. أدونيس. **مقدّمة للشعر العربي**، بيروت: دار العودة، 1971، ص125.

اعتمادًا على أرقى المعارف العلمية، عاجزةٌ عن أن تستوعب الذاتَ المترنِّحَة، واللحظة التاريخيّة، اللتينِ تريد أن تحيا بهما ولهما." [١] وبذلك يميل الحداثيون إلى تحييد اللغة "عن طريقتها العاديّة في التّعبير والدّلالة" وإلى إضافة ما يلزم لطاقاتها من خصائص "الإثارةِ والمفاجأةِ والدّهشة،"[٢] وهي خصائص من الظّاهر أنها تعتمد إلى حدّ كبير على التّجربة الذاتية للشّاعر الذي لا بدّ له من أن يطهِّر لُغَتَه من "آثار غيره، ويفرغها من ملكِ الذين امتلكُوها في الماضي ." [٣] على الشّاعر أن ينفصل بلغتِه عن الإطار اللغوي العامّ الموروث [٤]،ولا بدّ له من تثوير اللغة بأن يثور على "نظامِها اللغوي"[٥] المحافِظ.

يرى بعض الحداثيّين العرب أنَّ الثورة على المحافظة، والنُّظُم اللغوية والتّقاليد الأدبية، وحدَها هي التي ستمكِّنُ من خلق لغة ثورية، وهذه بدورِها حيويَّة لتخليق ثقافة عربية جديدة مُغايرةٍ ؛[٦] ولا بدّ لتحقيق تلك اللغة بنُظُمها الجديدة الثورية من هدم وظيفة اللغة القديمة (التراثيّة)، وذلك بإفراغها من مُحتواها ومضمونها[٧]الدلالي بصورة خاصَّة، وتحقيقِ انزياحاتٍ مُدهشة فيها، لتكون حداثيَّة حداثيَّة تُمكّن الإنسانَ العربي، والمسلمَ من دخول بوّابة العصر. حتى لو أدى ذلك إلى قلق دلالي عند القارئ وربما الأديب.

إنّ المسعى الأساسي للحداثة أن تبلُغ باللغة الشعرية حدّ اً تكون به الكلماتُ طازجةً جديدةً فذّةً بريئةً من أيّ ماض أو تاريخ؛ أي أن تفرَّغ الألفاظُ من حَمُولاتِ

---

١. بنيس. **حداثة السؤال**، بيروت، 1986م، ص27.
٢. أدونيس. **مقدّمة للشعر العربي**، مرجع سابق، ص112.
٣. أدونيس. **زمن الشّعر**،، ط3، بيروت: دار العودة، 1983م، ص138.
٤. المرجع السابق، ص159.
٥. المرجع نفسه، ص179.
٦. أدونيس. **زمن الشّعر**،، ط3، بيروت: دار العودة، 1983م، ص199.
٧. أدونيس. **سياسة الشّعر**، بيروت: دار الآداب، ص132.

معانيها تاريخيّاً ليتأسَّسَ لها تاريخٌ جديد خاصّ ، انطلاقاً من حَمولة معرفية جديدة[١]،وهذا هو القصدُ بحديثهم عن التّوهُّج والإشعاع والدّهشة والمفاجأة؛ لأنّ المتلقّي الذي يعرف للكلمات تواريخَ معانيها بحسب النظام الدلالي المعرفي للُّغة، حينَما تفجَؤُه الكلمات أنفسها بعلاقات غير مألوفة سيعيش حالة من الصّدمة والمفاجأة والدّهشة. ينبغي الخروج باللغة عن المألوف ،[٢] ولا بدّ من تفجير "بكارتِها من جديد،"[٣] وإطلاق طاقاتها الكامنة إبداعياً[٤].

وتستند الحداثة في دعَاوى منظّريها على اكتشاف قدرات اللغة من جديد، عن طريق تفجيرها "بخلقِ وظيفةٍ جديدة هي وظيفة ما وراء الإبداع، يكونُ قطبُ الرَّحى فيها أدبيَّةَ الخطاب النقدي [٥]".

إن تفجير اللغة في مظهر من تجلياته" انتهاك لقوانين العادة، فينتج عنه تحويل اللغة من كونها انعكاساً للعالم أو تعبيراً عنه أو موقفاً منه، إلى أن تكون هي نفسها عالماً آخر، ربما بديلاً عن ذلك العالم." [٦] وبهذا لا شيء يعلو النص ولغته؛ إذ إن اللغة مرجعية ذاتها، وهي بذلك تتسق مع نظرة الحداثة إلى الإنسان من أنه مرجعية ذاته. وهنا قد يقع المبدع في مأزق معرفي وأسلوبي عندما يحتكر المصطلح وماهيته، فيغدو المفسر الأوحد للمصطلح، فتنشأ فجوة كبيرة بين عناصر التكوين التفاعلي: المبدع والنص والقارئ. وحتى يتمكن العربي من فهم

---

١. برادبري، مالكوم ، ماكفارلن، جيمس (محرران). **الحداثة** ، ترجمة: مؤيد حسن فوزي، بغداد، 1987،ص158.

٢. أدونيس. **الثابت والمتحوّل، صدمة الحداثة**، ط4، بيروت: دار العودة، 1983م، ص243.

٣. أبو ديب. الحداثة، السّلطة، النّصّ، **مجلّة فصول**، الجزء 1، 1984، ص44.

٤. المسدّي، عبد السلام: **النقد والحداثة**، بيروت، 1983، ص13-14.

٥. المسدّي، عبد السلام: **النقد والحداثة**، بيروت، 1983، ص29.

٦. الغذامي، عبد الله. **الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية،** كتاب النادي الأدبي (27)، جدة، ص26.

النص ودلالاته، ينبغي أن يتزوّد بالأدوات والمعارف الحديثة لتنقله من الماضي وتراثه إلى الحاضر وواقعه.

خامساً: تنمية اللغة وتفعيلها في الخطاب الثقافي

كثر الحديث في العقد الماضي عن تنمية اللغة وتحديثها وتفعيلها وتطويرها، إلى غير ذلك من المفاهيم والمصطلحات التي تهتم بوضع اللغة العربية في سياقها الحضاري. وقد جاء الحديث عن موضوع التنمية والتحديث في سياق الهيمنة اللغوية التي تمارسها اللغات الأخرى لا سيما الإنجليزية، وتغوّلها في النطاق التقني والمجتمعي والبحثي والتعليمي، إلخ. فكان لا بدّ من العمل على تفعيل اللغة العربية في مناشط الحياة كلها، فتشكّلت المؤسسات الحكومية والخاصة للدفاع عن اللغة وتطويرها. وما من شك في أن هذه المحاولات أسهمت في إحداث نوع من الحراك المجتمعي والثقافي تجاه لغتهم القومية. إلا أن معظم المحاولات لا سيما الخاصة منها كانت ذات وجهة تجارية مرتبطة بالسوق؛ إذ غدت اللغة مادة وسلعة مهمة لتعريف الآخر بالثقافة والحضارة العربية الإسلامية، لا سيما بعد أحداث سبتمبر. لذلك لا نلمح مظاهر الانتماء تجاه المحافظة على اللغة، ومحاولة تطويرها بالاتجاه الذي يحافظ على كينونتها وماهيتها وارتباطها المتجذر بالدين. بل يكون الآخر حاضراً عند التفكير في محاولة التحديث والتطوير والإنتاج، لأنه مناط الخطاب. وبناء عليه فإن أية تنمية لغوية ينبغي أن تكون واعية لطبيعة اللغة ومدى الانتماء إليها، ووضع سياسة لغوية قادرة على مواكبة التحولات الثقافية، وتفعيل اللغة في حياة الذات والآخر.

لا أحد ينكر المدّ الكبير للعولمة منذ مدة ليست بقصيرة، وكلنا يعي أن العولمة ذات وجوه متعد دة، وإن كان الوجه الاقتصادي هو الأبرز؛ فثمة عولمة اجتماعية وأخلاقية وفنية وثقافية ولغوية أيضاً؛ إذ نلمح هيمنة واضحة للغة الإنجليزية في جميع

مرافق الحياة؛ سماعاً وقراءةً و كلاماً. وهذا الإحساس بهيمنة اللغة الإنجليزية يفرض على المؤسسات الثقافية والمعرفية والفكرية والتربوية ...، أن تضاعف جهودها في سبيل حماية لغتها وهويتها [١]، لا سيما أن اللغة العربية تمتلك ميزات تؤهلها إلى أن تغدو لغة عالمية، فخصائصها النحوية والتركيبية والاشتقاقية، والقدرة الكبيرة على الإنتاج اللغوي، يجعلها قادرة على التكيّف والاستيعاب والتجاوز.

ثمة عاملان مهمان يبلوران موقع اللغة في رؤية الخطاب الثقافي، هما: السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي.

يرى طوليفصون في كتابه الموسوم بـ "السياسة اللغوية ... خلفياتها ومقاصدها" أن سبب إخفاق ملايين البشر في تحصيل الكفايات اللغوية اللازمة للغات التي يحتاجون إليها كي يعيشوا بكرامة، يعود إلى السياسات اللغوية التي تجعل هؤلاء الناس غير مقتدرين على التمكن اللغوي [٢].والسياسة اللغوية تعني تحديد الاختيارات الكبرى في مجال العلاقات بين اللغات والمجتمع، وتطبيقها؛ أي ما يُدعى بالتهيئة أو التخطيط اللغوي [٣].وتدور السياسة اللغوية حول أسئلة تتعلق بالمتحدِّث والمُتحدَّث إليه، وكيفية الحديث، والوسائل المتبعة، والبيئة المخصصة،

---

١. ينظر جملة الفعاليات التي عقدتها مؤسسة عبد الحميد شومان في تفحّص أخطار العولمة على اللغة العربية، والتحديات التي تواجه اللغة. ومن هذه المحاضرات:
- لبيب، الطاهر. عودة إلى المسألة اللغوية، 2004/5/10
- الأسد، ناصر. مستقبل اللغة العربية في عالم متغير، 2007/5/7
- الرباعي، عبد القادر. أسئلة النقد الأدبي في عصر العولمة، 2009/2/16
- المسدي، عبد السلام. اللغة العربية وتحديات العصر، 2012/2/27

٢ طوليفصون، جيمس. **السياسة اللغوية ... خلفياتها ومقاصدها**، ترجمة: محمد خطابي، الرباط: مؤسسة الغنى، ط1، 2007م، ص16.

٣ كالفه، لويس جون. **السياسات اللغوية**، ترجمة: محمد يحياتن، الجزائر: منشورات الاختلاف، لبنان: الدار العربية، للعلوم، 2009م، ص7.

وموضوع الحديث، وزمنه. وهذا يعني أن السياسة اللغوية هي عملية تدبيرية للذات وللموضوع وللآخر، وعملية تنظيمية للبيئة اللغوية وللوظائف وللاستعمالات وللبيئة ولجوانب التغيرات المتعلقة بذلك كله والمرتبطة به، وتنظيم المصادر اللغوية في المجتمع. وهي عملية مجتمعية ؛ لأن أية سياسة لغوية لا بدّ أن تأخذ بعين الاعتبار التطورات الاجتماعية، ومطالب المجتمع وهويته . وهي تكييفية؛ إذ إنها عملية يمارسها الأفراد والمجموعات حسب الزمان والمكان والموضوعات والأدوار الاجتماعية، فيتكيف الفرد لغوياً، كما يتكيّف اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً وحضارياً.

إن على الخطاب الثقافي أن يعي أهمية وجود السياسة اللغوية في رؤيته وبرامجه، ولا يعني ذلك أن تتحول المؤسسة الثقافية إلى مؤسسة لغوية، تسخّر وقتها ومالها وعامليها بشكل كامل للغة، بل يتطلب الأمر أن يكون للغة – بوصفها هوية – وجود معتبر، عن طريق الإنتاجات التي تصدر عن المؤسسة، بأن تكون لغتها سليمة، وأسلوبها عربياً مبيناً. وأن تكون معالجة التراث ضمن دائرة الانتماء والتطوير لا النقض، وأن يكون حضور اللغة حضورَ هوية لا تواصل، وأن تستثمر المؤسسة الثقافية الوسائل والتقنيات اللازمة لجعل اللغة العربية فاعلة في المجال التقني ، فـ "أية لغة لا يمكن أن تكون فاعلة إلا إذا كانت متداولة عبر شبكات المعلومات العالمية. وهذا سيؤدي إلى زوال تدريجي للعديد من اللغات التي تعجز عن التطور مع مستلزمات تقنيات المعلومات وشبكاتها. وهذا هو التحدي الأساسي الذي يواجه اللغة العربية حالياً في إطارها العالمي الإسلامي المنتشر بين أكثر من بليون من البشر" [١].

---

١. حسن، الشريف. العولمة والثقافة واللغة: القضايا الفنية في: **أسئلة اللغة**، الرباط: منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، 2002م، ص42.

إن التجلي الأبرز للسياسة اللغوية كا من في التخطيط اللغوي؛ فالتخطيط اللغوي تطبيق لسياسة لغوية، ويُعنى هذا التخطيط بتكوين رؤية تبحث في مجالات اللغة ودوائرها وموضوعاتها. وهذا يتطلب أن تكون السياسة اللغوية للخطاب الثقافي واضحة المعالم والإجراءات. ويدل التخطيط اللغوي على المتابعة المنظمة الهادفة إلى إيجاد حلول لمشكلات اللغة، وخاصة على المستوى القومي. ويدل كذلك على أنشطة مَ عيْرة اللغة التي تؤديها المجامع اللغوية واللجان المتخصصة بتطوير اللغة، وهي أشكال الأنشطة التي تعرف عموماً بتنمية اللغة، والمقترحات المتعلقة بإصلاح اللغة ومعيرتها [١].وهو بذلك يشمل كل ما يتعلق باللغة من حاجيات وأهداف، والقيام بالتنفيذ والتقويم والنقد؛ إذ هو "كل الجهود الواعية الرامية إلى التأثير في بيئة التنويعات اللغوية، أو في وظائفها، وهذا هو التحديد الذي يحظى بالقبول عامة، وتشمل هذه الجهود إنشاء قواعد الإملاء، وتحديث البرامج والعلم، وأشياء أخرى كثيرة لا تصل لا بالعامية، ولا بالأجنبية في المحيط ال عربي الإسلامي، وإنما تصل باللغة العربية الفصيحة، لأنها لغة الدين والحضارة والإبداع الأدبي، وما إلى ذلك من مجالات كثيرة، لا يتمكن النمو العربي المعرفي والديني والمجتمعي إلا بالنمو فيها، لأن هذه المعارف نشأت باللغة الفصيحة، وتمكنت بها، وتفتقت طاقة العربي بها." [٢]

إن قصر التخطيط اللغوي على اللغة بوصفها موضوعاً وآلة، يُعدّ تقليلاً من شأنه، فهو يشمل بالإضافة إلى اللغة، مستعمل هذه اللغة، والوسط الذي تُستعمل فيه. لذا لا بدّ للخطاب الثقافي أن يهيئ وسطه لاستيعاب اللغة، وإدماجها في

---

١. روبرت، كوبر . **التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي**، ترجمة: خليفة أبو بكر الأسود، المغرب : مجلس الثقافة العام، 2006م، ص67-69.

٢. الفاسي الفهري، عبد القادر . عربية النمو والمعجم الذهني، **مجلة أبحاث لسانية**، العدد 1، المجلد 1، 1996م، ط3، الرباط: منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب.

برامجه وإنتاجاته. وعندما يتيقن الخطاب الثقافي بأن ثمة سياسة لغوية وتخطيطاً لغوياً يسيران ضمن رؤية علمية منهجية واقعية، فعندئذ سيؤدي ذلك إلى تنمية لغوية مستدامة وواعية. وتنتج في الوقت ذاته حماية لغوية قادرة على تمكين اللغة في ذاتها، وفي محيطها، وتأهيلها وتأهيل مستعمليها، وتعزيز وجودها واستعمالها في جميع مرافق الحياة. وأخيراً ضمان مستقبلها، واستشراف نتائجها[١].

ينبغي للخطاب الثقافي أن يستشعر ماهية اللغة، وأن يتعامل مع هذه اللغة بوصفها قيمة من القيم العليا السامية، ارتبطت بنص إلهي [٢]. وتفعيل هذه القيمة يتم بتحرّك بشري يحوّل الأمر الإلهي إلى واقع معيش على الأرض. وإن تحويل هذه القيمة إلى تأطير إجرائي، يقع على عاتق المؤسسات الثقافية؛ إذ تتبلور في رؤية المؤسسة ورسالتها وأهدافها العامة. ولا تعني ماهية القدسية توقيف العمل على تطوير اللغة، بل تعني استشعار قيمة اللغة ودورها في الارتقاء بالهوية.

إن عملية النهوض الثقافي بحاجة إلى أن يعي المثقف الواقعَ الذي يعيشه ويعايشه؛ إذ إن حركة الإنتاج الفكري تفاعلٌ بين الإنسان وبيئته الثقافية والاجتماعية والسياسية ... . صحيح أن بذرة التغيير والنهوض عبارة عن أفكار وربما تكون مجردة، إلا أنها في سيرورتها وصيرورتها تتنزل واقعاً معيشاً، لتنقل من

---

١. من المفيد الاطّلاع على تجربة لجنة البحث في تعليم اللغة الإنجليزية المعروفة بتقرير (King Man) عام 1986م، الذي بحث في المحافظة على الإنجليزية بوصفها إرثاً وطنياً. انظر التقرير في:

– طوليفصون. **السياسة اللغوية**، مرجع سابق، ص72.

٢. ينظر تبلور هذه الفكرة في:

– العلواني، طه جابر. عربية القرآن ومستقبل الأمة القطب، **مجلة إسلامية المعرفة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة التاسعة، العدد 33-34، صيف وخريف 2003، ص11-44.

– الشيخ عبد الله، عادل. علوم العربية ومنهجية الجمع بين القراءتين، **مجلة إسلامية المعرفة** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة السابعة، العدد 28، ربيع 2002، ص95-122.

حالة التجريد إلى حالة التشكّل الملموس والملح وظ. وإذا لم تتساوق الرؤية الثقافية مع الواقع فإن النهوض الثقافي سيُصاب بالإحباط وربما الاحتضار.

يحتاج الخطاب الثقافي إلى استقراء الواقع، وتفحُّص ما يحتاجه المجتمع ومدى قدرة الخطاب على بث الوعي بجميع أشكاله بين أفراد المجتمع؛ إذ يتقزم دور المثقف إن مارس دور الموجِّه والمفكر الذي ينتج الأفكار فحسب، بل ثمة حاجة إلى أن ينتقل من النظر إلى العمل، وبذلك يغدو ذلك العالم العامل.

لعل من القضايا المتعلقة بالواقعية، تلمُّس اللغة المناسبة لممارسة الخطاب الثقافي من خلالها؛ فقد دار حوار كبير وعميق عن مدى قدرة العربية الفصيحة في التعبير عن مناشط الحياة، ومن ضمنها الخطاب الثقافي. وثمة محاولة للدكتور نهاد الموسى في تشخيص العربية وأطرها كما هي في الوقت الحاضر [(١)]؛ إذ رأى أن العربية تتخذ في الوقت الحاضر الأنحاء الآتية:

– عربيّة فصحى في المصحف المرتّل، وهي عربية ائتلافية، فقد أُنزل القرآن على سبعة أحرف.

– وعربية فصيحة بالفعل إذا استوفى القارئُ بما استدخل من نظامها شروط الصواب، كما في إنشاد الشعر الفصيح والغناء به، وكما في الدراما التاريخية والدراما التلفزيونية المترجمة "المدبلجة"، والتقارير الوثائقية والنشرات الإخبارية وكثير من أفلام الكرتون.... و غيرها.

– وعربية فصيحة بالقوّة، وهي عربية البحوث والمؤلفات والدوريات والصحف؛ إذ هي مكتوبة غير مشكولة في المعتاد الجاري، وإذن تكون مفتوحة لمستويات متفاوتة من الأداء، فقد تكون فصيحة بالفعل على الشرط المتقدّم، ولكنها

---

١. من محاضرته في مؤتمر: الثقافة والمتغيرات، الذي عقدته وزارة الثقافة الأردنية، بتاريخ 1/ 2012/7م.

في السائد عربية ملحونة مشوبة بأخطاء الضبط والإعراب، وهي عربية القارئ العربي على العموم.

– وعربية فصيحة محكيّة، يحاولها ويلتزمها متخصّصون ومثقّفون، ولكنّهم قليل، حتى ليكاد الناس يميّزونهم بهذه الخصوصية.

– وعربية شبه فصيحة، تجري بها ألسنة مراسلي بعض الفضائيات في سياق نشرات الأخبار؛ إذ اجتهدوا في تطويرها لتنسجم مع سياق النشرات، ومقتضيات الخطاب الموجّه إلى قطاع المشاهدين في الفضاء الممتدّ.

– وعربية وسطى، هي عربية المتعلّمين المحكية، وهي مزاج من العامية المكتسبة والفصحى المتعلّمة، تقترب من الفصيحة في معجمها وهيئات أبنيتها وطرائق نظمها. ولكنها تقع دون الفصيحة؛ لأنّها غير معربة إلا في بعض المأثور والرواسم (مثلاً، طبعاً، بداية، أصلاً، شكراً ...)، و هي عربية التخاطب بين المتعلّمين الناطقين بلهجات عربية مختلفة.

– لهجات عامية محكية متداولة في سياقاتها المحلية، بل ممتدة في فضاء الإعلام، والأفلام العربية، والدراما الاجتماعية، والشعر الشعبي (أو النبطي)، وفيض الأغاني الشبابية. وهي اللهجات المكتسبة بالسليقة، وهي النّظم اللغوية التي تستولي على البرنامج اللغوي الأوّل في الدماغ لدى العربيّ.

– لهجات عاميّة مكتوبة في حواشي بعض القنوات الفضائية والإعلانات التجارية، وهي تخرق العُرف الاجتماعي؛ إذ تُنزل العامي المحكي المنطوق منزل الفصيح المكتوب، وتخرج على رسم العربية المألوف إلى رسوم كتابية عشوائية.

– عربية مكتوبة مجتزأة في الإعلانات المبوّبة لغاية الإبلاغ، تُسقط الروابط جملة؛ إذ تعوّل في خطابها على قرائن السياق، وتستثمرها لغايات الاقتصاد في حيّز الإعلان، ومؤنة النفقة.

– عربية مختزلة مكتوبة بالحرف اللاتيني، يتداولها الشباب في رسائل الهواتف المحمولة والبريد الالكتروني، وهي في معظم الأحيان عاميّة مشوبة بعبارات إنجليزية سائرة، بل تستبدل ببعض الألفاظ أرقاماً (4or)، و تختزل الألفاظ حروفاً (u-you).

– عربية محكية وسطى تخالطها مفردات وعبارات بالإنجليزية أو الفرنسية في المشرق العربي.

– عربية عامية مهجنة بالهندية أو الأُردية في مشرق الخليج العربي.

– عربية عامية تخالطها مفردات و عبارات بالفرنسية في المغرب العربيّ.

ويرى الدكتور نهاد بأن ثمة مواقف متعددة ومتباينة من أهل العربية تجاه وضع العربية: فَمِنْ ناظرٍ إلى التزام الفصحى في لغة الخطاب اليومي دليلاً على المحافظة فيأنس به. ومن ناظر إلى هذه الظاهرة على أنها ظاهرة فردية لم تبلغ أن تكون عُرفاً اجتماعيّاً، وأن تكلّف الفصحى في كل موقف يلقي على المتحدث عبئاً ذهنيّاً إضافياً هو من لزوم ما لا يلزم، وقد يلقى لدى بعض المستمعين استهجاناً لما لم يألفوا. ومِنْ راغب في اتخاذ الفصحى يحاولها في خطابه الديني أو الثقافي ولكن بعض "العامي" المكتسب يتسرّب إلى لسانه على نحو تلقائي "لا واع" أو "لا إرادي". ومِنْ قائل إنّ الإعراب نظام، والنظام جميل، والتزامه دليل اتساق يليق بالاتّساق المنشود في ظواهر الوجود والاجتماع الإنساني، وذلك ملحظ جماليّ "مثاليّ" على نحو ما. ومِنْ قائل إنه لا ضير من التساهل في الإعراب ما دمنا نبلغ القصد من الإفهام والتواصل، وتلك نزعة براغماتية خالصة. ومِنْ "لغوي" يستحب ما كان يجري به لسان أُمِّه من العامية؛ إذ يجد له مع حميميّته أصلاً في الفصحى ونأياً عن التكلف. ومِنْ مُحاضر بالعربية وغيرها من حقول التخصّص

يستعمل "العربية الوسطى"، غير آبه بأن يحتشد لهذا الموقف العلمي الخالص بالتهيّؤ اللائق، مائلاً إلى أدنى المجهود والخاطر اللغويّ الحاضر. ومِنْ ناظر إلى أداء أبناء العربيّة وما يقعون فيه من أخطاء القراءة الكتابة، فيراه ضعفاً فادحاً، ومدعاة للإنحاء باللائمة على الجيل والمؤسّسة التربوية. ومِنْ قائل إنّ المداخلة بين العربية والإنجليزية (مثلاً) يأتيه عفواً لازدواج موارد اللغتين لديه بالاكتساب (على مستوى العامية)، والممارسة (على مستوى الإنجليزية). ومِنْ قائل إنّ هذه المداخلة تُنبّئ عن عقدة نقص تُترجم عنها المقولة الخلدونية: إنّ المغلوب مولع بتقليد الغالب، أو هي مظهر من مظاهر التباهي بالتزيّي بزيّ "الآخر" "المتقدّم" طلباً للظهور. ومِنْ ناظر إلى تفوّق "الآخر" و امتداد لغته "الإنجليزية" خاصة في الآفاق، مفتاحاً لفُرص العمل ودليلاً على التقدّم، وعملة رائجة في سوق التداول ومجال الأعمال، فيقف من التخصص في العربية موقفاً سلبيّاً أقرب إلى الازدراء. ومِنْ ناظر إلى مثل هذا الموقف على أنّه من وجهٍ يمثّل ازدراء المألوف، ويغفل عن المكانة الحيويّة للعربية، ويرى أنْ لَوْ عانى هؤلاء حُبْسة في ألسنتهم لأيقنوا بهذه المكانة والدور الذي لا تستقيم حياتهم إلاّ به، ويمثّل، من وجه آخر، خفوت الحسّ بالهويّة تحت وطأة تغوّل الآخر، وتداعي عنفوان الأمّة الرسمي. ومِنْ مُشفق على العربية أن يغمرها طوفان الألفاظ الأجنبية في السوق العربية الاستهلاكية. ومِنْ ناظر إلى هذه الظاهرة على أنّها ظاهرة طبيعية في اقتراض اللّغات بعضها من بعض، ذاهباً إلى أنّها نتيجة تلقائية لموقف "الإنتاج" لدى "الآخر" مقابل غلبة "الاستهلاك" علينا.

لقد وجدت عبر تاريخ العربية محاولات جادة لإقامة ائتلاف بين اللغة والخطاب، وإيجاد لغة وسطى، رغبة في المحافظة على اللغة ومقوماتها من جهة، وتيسير اندماجها في بنية خطاب العصر، وتكون هذه اللغة مشتركة سليمة

مستساغة، يجيدها الخاصة ولا يعجز عنها العامة [١]. يقول ابن خلدون: "اعلم أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة، ولا بلغة أهل الجيل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها، بعيدة عن لغة مضر، وعن لغة هذا الجيل الذي لعهدنا، وهي عن لغة مضر أبعد. وأما أنها لغة قائمة بنفسها، فهو ظاهر يشهد له فيها من التغاير الذي يُعدّ عند صناعة أهل النحو لحناً."[٢] وهو يصرح في مقدمته، في الفصل الثامن والثلاثين (إن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مُضر وحِميَر) "وذلك أنّا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري، ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات التي تعيّن الفاعل من المفعول، فاعتاضوا عنها بالتقديم والتأخير، وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد [٣]".

يرى الدكتور أحمد المعتوق أن ثمة حاجة للغة تساير العصر ومتطلباته، ويدعو إلى تشكيل لغة وسطى، ويصفها بأنها "ذلك المستوى اللغوي المنطوق الذي يستمد عناصره ومكوناته الأساسية الأولى من فصحى العصر بمختلف درجاتها ونماذجها، وروافدها الداخلية والخارجية، وتُكيّف فيها عناصر أخرى من العامية بمختلف أنماطها ودرجاتها التي لا تبتعد عن أصول الفصحى، ومقاييسها وقاعدتها الأساسية. لتتكون أوتتطور من خلاله، ومن خلال توفيقه وجمعه بين هذه العناصر، لغة عربية محكية مشتركة وسيطة عفوية أصيلة مبسطة... لا يجد المدرس ولا تلميذه ولا المذيع ولا مستمعه أية صعوبة أو كلفة في مواصلة

---

١. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:
- ابن فارس في كتابه: متخيَّر الألفاظ.
- ابن خلدون في مقدمته.
- توفيق الحكيم في مسرحية الصفقة.
- محمد كامل حسين في كتابه: اللغة العربية المعاصرة.
- أحمد المعتوق في كتابه: نظرية اللغة الثالثة.

٢. ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ج3، ص1284.

٣. المرجع السابق، ج3، ص555.

استعمالها... لغة لا تعوض عن الفصحى الأصيلة الصافية النقية العالية، ولا تكون بديلة عنها، وإنما تكون إلى جانبها متطلعة صاعدة دائماً نحوها، مهيئة لانتشارها وزيادة نفوذها وتعزيز مكانتها." [١]ويرسم المعتوق خطوطاً عامة ورؤية كلية لهذه اللغة؛ إذ ينبغي أن تكون عربية محكية، فصيحة سليمة في تكوينها العام، ولكنها لا تصل إلى مستوى اللغة الأدبية في الانتقاء والغربلة واكتمال الاستقامة في النحو والإعراب. وأن تكون لغة التعليم في جميع مراحله، ولغة الإعلام الجماهيري في معظم أشكاله، ولغة للثقافة والتثقيف المحكي عامة، وقابلة أن تصبح مشتركة بين أفراد المجتمع العربي بمختلف طبقاته. وهي تسير وفق العربية الفصحى، إلا أنها تظل بعيدة عن كل ما يضع العراقيل أمام انسيابها سائغة ميسرة. ولها من الألفاظ الأجنبية المعربة والدخيلة نصيب وافٍ، ولكنها خالصة في متنها وبناء مفرداتها، مما يقلل ارتباطها بأصلها. وهي منسجمة مع مستجدات العصر، وظروفه المتطورة، ومع طباع الناس وذوقهم، ومع مستوياتهم الذهنية والفكرية والاجتماعية والثقافية، حيوية مرنة منفتحة على العصر تنمو بنموه، وتتسع مع اتساعه. وهي متخففة من كل ما يمنع من ديمقراطيتها وديمقراطية الأدب والفكر الذي يتم إيصاله ونشره بها، بعيدة عن كل ما يقضي بالتفريط في أي جانب من عناصر اللغة القومية الأولى. وهي مترفعة عن كل ما ينأى بالجيل أو يفصله على المدى القريب أو البعيد عن نصوص وعناصر تراثه الفكري والأدبي. وأخيراً فهي سهلة الاكتساب، ببساطتها وكثرة تداولها[٢].

وعلى الرغم من الاعتراضات الكثيرة على مشروع المعتوق، لا سيما في موضوعي اللغة الفصيحة والعامية، واللغة الفصيحة والثنائية اللغوية، إلا أن محاولته تستحق البناء عليها لمحاولة المواءمة بين اللغة في معياريتها ومتطلبات

---

١. المعتوق، أحمد. **نظرية اللغة الثالثة: دراسة في قضية اللغة العربية الوسطى** ، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2005، ص98-99.

٢. المعتوق، نظرية اللغة الثالثة، مرجع سابق، ص99-101.

العصر المادية والنفسية، ولما فيها من استقراء كبير لمحاولات التوليف التنظيرية والتطبيقية بين اللغة العربية والزمن الذي تعيشه. خاصة أن هذه المحاولة تفارق المحاولات التي نادت بنبذ الفصيحة، وإحلال اللغة المحكية مكانها تحت الشعار البنيوي: "دع اللغة وشأنها، تسير حيث شاءت لها الظروف والمصادفات[١]."

مما سبق نرى بأن ثمة استشعاراً كبيراً بأن الخطاب الثقافي بحاجة إلى الوعي بأهمية اللغة في إبراز تجليات الخطاب الثقافي، وتسييره وتيسيره بين أبناء المجتمع، وثمة حاجة لإدماج اللغة؛ فكراً وحرفاً وكَلِمَاً في بنيته الخطابية، وتكييف هذه اللغة بما لا يتعارض مع هويتها وقواعدها التي تميزها عن غيرها من أشكال التواصل.

خاتمة:

كشفت الدراسة عن دور اللغة في بناء الشخصية العربية الإسلامية، وأهميتها في ترسيخ معالم الانتماء إلى هوية الأمة، ومدى الحاجة إلى حضورها في الوجدان العربي، بوصفها عنصراً من عناصر الثقافة العربية الإسلامية. وأبرزت الدراسة دور الخطاب الثقافي في تشكيل الشخصية العربية الإسلامية، وإسهامه في تهذيب الرؤية الثقافية العربية التي وقعت في مستنقع البنيات المعرفية الأخرى، على مستويي: الرؤية والخطاب؛ إذ كان للخطاب الثقافي حضور في مقاومة التبعية الثقافية والاغتراب، إلى غير ذلك من مصطلحات الاستلاب الثقافي.

وحاولت الدراسة أن تتبيّن موقع اللغة في الخطاب الثقافي ضمن إطارين: إطار إيجابي تلمسته من تنظيرات بعض الخطابات الثقافية وتجلياتها؛ إذ ظهر حرص الخطاب الثقافي المنتمي للأمة ولهويتها، على المحافظة على اللغة، بوصفها مكوناً أساسياً من مكونات الهوية العربية؛ وإطار سلبي تمثل في تنظيرات

---

١. ومنها محاولات سلامة موسى وأنيس فريحة على وجه الخصوص.

الخطاب الثقافي لبعض الحداثيين وتطبيقاتهم تجاه اللغة بوصفها جزءاً من التراث؛ إذ برزت عبارات الرفض والتمرد على اللغة ومحمولاتها الثقافية والمعرفية.

ورأت الدراسة بأن ثمة ضرورة لتفعيل اللغة وتنميتها في الخطاب الثقافي، من خلال بناء سياسة لغوية قادرة على إدماج اللغة في النسيج الثقافي الاجتماعي متجاوزة تواصلية اللغة. وتطرقت الدراسة إلى بعض الاستقراءات لموقع اللغة في الكيان المجتمعي في الوقت الحاضر، وما هي اللغة المناسبة التي يمكن من خلالها اقتحام بوابة العصر، دون تقويض لبنية هذه اللغة.

ثمة حاجة ماسّة لتتبع الأدبيات التي تحدثت عن تطوير طرائق إدماج اللغة في مناشط الحياة، وعن المهمة التي يمكن أن تؤديها اللغة في الخطاب الثقافي. ومحاولة النظر إلى اللغة بوصفها كياناً متحركاً لا قواعد معيارية ساكنة. وهذا يفرض على الخطاب الثقافي أن يبلور تصوراً جديداً حول اللغة وماهيتها ودورها، يتجاوز الشكل الحرفي والصوتي إلى الدور المعرفي لهذه اللغة.

التعليقات والمناقشات

- د. حامد صادق قنيبي

يرى أن تكون نتائج ورقة د. عكاشة من أهم توصيات هذا المؤتمر.

- د. محمد الحوراني

يقول: وجدت في تعريف الثقافة نكهةً وظيفية ترتقي بمفهومها إلى المثلنة؛ فتجعلها مفهوماً مثالياً، وهذا لا يجعل أي نوع من الخطاب على مستوى الممارسة يقارب مفهوم الثقافة، ويتساءل -هنا- ما الفرق في هذا الطرح بين الثقافة وبين الخطاب الثقافي خاصة مع تقديم مفهومٍ إجرائي للثقافة؟

- رد الدكتور رائد عكاشة

فيما يتعلق بقضية الثقافة والفرق بينها وبين الخطاب الثقافي يقول: لعل سلامة موسى حين ترجم مصطلح الثقافة أوقعنا في مأزق كبير؛ فقد ترجمه على أنه الأطر المتعلقة بالتنظيرات والمناشط الفكرية والثقافية للحياة وليست المناشط المادية.

ولم أتبع هذا المنحى في تعريف الثقافة، وإنما اتبعت المنحى الذي يربطني بالمرجعية، ولم أُخفِ هذه المرجعية الدينية الإسلامية في استنباط معنى الثقافة، وقد أوردت في دراستي هذه تعريفات كثيرة فيما يتعلق بالثقافة كناحية نموذجية نحاول الوصول إليها بالأسلوب والسلوك الثقافيين والخطاب الثقافي الذي هو أكثر إجرائية من مصطلح الثقافة، كما يجوز أن يكون مصطلح الثقافة مصطلحاً مثالياً في محاولة الوصول إلى هذا المصطلح.